# الفصل الثاني
# المحرَّم الأخير

**إن الإيديولوجية التي تقسم الناس إلى ذوي قدر أكبر وذوي قدر أصغر، وإلى مخلوقات أعلى ومخلوقات أدنى، لا ينبغي لها، لتكون إيديولوجية باطلة، أن تصل إلى الأبعاد التي وصلتها الإبادة الجماعية الألمانية.**

أميرة هاس، صحفية إسرائيلية

**لم يكن هناك شيء اسمه الفلسطينيون، إنهم لم يوجدوا مطلقاً.**

غولدا مئير، رئيسة الوزراء الإسرائيلية.

كان الحجاج يمشون بتثاقل بطيء وهم مُصعِدون في طريق الآلام، يمرون على بائع سقطت أسنانه، يبيع مزيلاً لروائح الإبطين باسم بونتيوس بيلاطس ("احكم عليها بنفسك") ويبيع ساعات الضريح المقدس الرملية لتوقيت سلق البيض. وفي كل محطة من محطات الصليب، قاد صلوات الحجاج راهب من الفرنسيسكان، وحين وصلوا إلى كنيسة الضريح المقدس، كنيسة القيامة، نزل دخان البخور، والعرق والسوائل على أولئك الذين كانوا قادرين على التدافع بالمرافق ليشقوا طريقهم إلى الداخل. وهنا، يكون قد اكتمل العد التنازلي للألم وانطلقت أجراس الشعائر كنيران المدفعية في السماء وأعولت الكلمة منتحبة صاعدة بأن المسيح كان ميتاً وأنه لم يبعث بعد.

كان ذلك عيد الفصح في العام 1968، وهي زيارتي الثانية لما يسميه الرهبان الأرض المقدسة، وهو تعبير يفتقد الآن المعنى بالنسبة إلى الجميع باستثناء الأتقياء. واعتاد الأجانب أن يهمسوا: "عاش العرب هنا"، لا بل لقد قيل إنهم كانوا قد عاشوا هنا أطول من أي أحد آخر. ولكن هذه الحقيقة كانت هدامة الآن، و"العرب" الذين هزموا هزيمة شاملة للغاية في "حرب الأيام الستة" قبل عشرة شهور، لا يكادون هم أنفسهم يهمسون بها لئلا يوقظوا في منتصف الليل ويطردوا من المدينة التي شهدت مولدهم ولئلا يعطى بيتهم من قبل حارس الممتلكات إلى أمريكي أو هولندي صبأ إلى اليهودية حديثاً. "فالعرب"، من الناحية الرسمية، كانوا الآن هم "المشكلة السكانية" أما كلمة "الفلسطينيون" فلم تكن تستخدم إلا من الفلسطينيين أنفسهم فقط.

وكنت، في إسرائيل، قد استمعت إلى أولئك الذين كانوا من جيل يهودي بقي أبناؤه أسرى لأساطيرهم ومخاوفهم، وكنت أشعر بالنسبة إليهم بمشاعر التقمص الوجداني الطبيعية، لا بل بمشاعر الإعجاب. وبعضهم كان قد قاتل في جيش الشعب، إي الهاجناه، ألهمه ذلك المذهب الإنساني الذي كان مادة للأسطورة في البلدان الغربية الراغبة في نفي الإثم في أوروبة ونفي الحقيقة في الشرق الأوسط. وحين كنت مراسلاً شاباً كنت أقبل مثل هذه الأساطير، وأبقى في قبضة عاطفة مختلطة من الإجلال والرهبة والتعجب من قوة تلك الأساطير، وأبقى كذلك نهباً لمعجم أورويلي من الأضداد التي بقيت حتى وقت قريب تحمي ملحمة الظلم الذي لحق بفلسطين.

في الشهور التي سبقت هذه الزيارة كنت قد أقمت في مزرعة جماعية "اشتراكية"، (كيبوتز) واستمعت فيها كيف أن أرض فلسطين كانت في معظمها صحراء، في الوقت الذي قد تكون فيه قد سكنت من قلة من البدو العرب الرحل، وكيف أن أحد الإنجازات الفذة للمشروع الصهيوني تجلت في تحويل الصحراء إلى أرض خضراء. وبرتقال يافا، الذي كان يزرع في المزارع الجماعية الاشتراكية مثل مزرعتي التي أقمت فيها والذي كان يصدر إلى بقية أجزاء العالم، كان يقال عنه

إنه يرمز لهذا المسعى الجدي الذي يبعث على الفخر ضد الاحتمالات المعاكسة، – حين أكّدت، في الحقيقة، عكس ما يقولون. إن بساتين البرتقال وكروم العنب كانت قد سرقت من الفلاحين الفلسطينيين الذين كانوا يحرثون التربة ويصدرون البرتقال والعنب إلى أوروبة منذ بداية القرن الثامن عشر. إن مدينة يافا السابقة مازالت تدعى "أرض البرتقال الحزين".

وحين وصل مضيفيّ الإسرائيليون اللطفاء، الذين كانوا يقودون السيارة على طول الطريق الساحلي (الكورنيش) في تل أبيب، حين وصلوا الساعة الموجودة في وسط الميدان الذي يعلّم المكان الذي بدأت منه يافا، حينها فقط نطقوا كلمة "عرب" وكأنهم يبصقونها بصقاً. آنئذ، شعرت أنا بشيء مألوف. فالبغضاء غير المفسرة ذكرتني بجنوب إفريقية، التي كنت قد منعت من دخولها منذ قريب. وبالنسبة إلى مصدر مخاوف الإسرائيليين، فقد كانت مثل الأشباح. فالفلسطينيون كانوا هناك ولم يكونوا هناك: ويستخدمون عمالاً وخدماً، ولكنهم مستثنون من أي سياق غير السياقات التي تدعو إلى الاحتقار.

وقد سافر معي دان هادارني، وهو مصور قد بقي على قيد الحياة بعد المحرقة. وبوصفه بولندياً وواحداً من "الغبار البشري" من الشتات، فقد تذكر، حين كان صبياً في بولندا، "العربات السوداء الطويلة" لقوات الأمن الداخلي للنظام النازي (الغستابو) وهي تجوب الشوارع، ويخرج منها رجال يلبسون معاطف طويلة، ويغرون الأطفال ليدخلوا إلى العربات من أجل "ركوب الابتهاج". وكانت المقصورات الخلفية للسيارات مغلقة والنوافذ مظللة غير شفافة، وحين يبدأ ركوب الابتهاج لكل صبي يتدفق الغاز من فتحات موجودة تحت المقعد، ولم يكن يستغرق الأمر أكثر من السير مسافة مجموعة من المباني أو مجموعتين حتى يكون بضعة أطفال من اليهود قد ماتوا. لقد سمع المصور عن السيارات، ولذلك كان يعدو مسرعاً حين كانت تأتي. ومعظم أفراد أسرته قتلوا بالغاز على أيدي النازيين.

وبعد أن قمنا هو وأنا بقيادة السيارة بطول فلسطين التي تحتلها إسرائيل، وكنا عائدين إلى القدس من مخيمات اللاجئين في قلندية وعقبة جبر، قال لي

فجأة: "أنا مفعم بالتشويش، وأتمنى لو لم أر ما رأيت اليوم. من الأفضل لإسرائيلي مثلي ألا يتشوش، لأننا نكون آنئذ، نحن اليهود، أضعف ما نكون. في المخيم، نظرت إلى مرآة: الناس هناك كانوا نحن، مرة أخرى في الشتات، فقد عبروا عن مرارتهم بالكلمات التي استخدمناها، وتصميمهم كان هو تصميمنا، الذي ترعرعنا معه في حارات اليهود (الغيتو). في قلبي، أريدهم أن يكونوا أحراراً، أن يذهبوا إلى وطنهم، ولكنني أعرف أن علي أن أوقفهم عن ذلك."

كان عيد فصح بارداً برودة قارصة وبليلاً بللاً قاسياً. ولم أكن قد لبست معطفاً، وكانت الريح في قلندية تدور مسرعة كالدوامة من ناحية الصخور الموجودة على الجانب العاري من الوادي وتحمل معها رائحة النتن المنبعث من مجاري الصرف التي فاضت واختلطت بالوحل. ومن بين آلاف المسيحيين الأجانب الذين يطوقون القدس، فإن اثنين فقط، زوجين لوثريين كنديين، ساقا سيارتهما مسافة 10 عشرة أميال عبر الوادي، وكانت سيارتهما اللاندروفر محملة بالبطانيات.

كان عدد من الناس يقارب ثلاثة آلاف نسمة يعيشون في هذا المخيم، وهم لاجئون في أرضهم الخاصة، وبعضهم على مرمى البصر من بيوتهم التي لم تبق بيوتاً لهم، وهم الآن مسجونون في مساكن من الطين، والخيش، والحديد الموج. والماء يقطر بنياً، إن وجد، من حنفيات جماعية، وهناك مراحيض جماعية، وأمراض جماعية مثل الجنون، والعمى، والتهابات المعدة والأمعاء. وكان يصرف لكل شخص من الطعام ما يعادل 2500 حريرة (كالوري) في كل يوم، وهي تهبط إلى 1500 حريرة في الصيف. وهذه الأرقام حسبتها وكالة الأمم المتحدة للإغاثة والتشغيل (الأونروا) بوصفها بدقة الكمية التي يحتاج إليها الإنسان ليبقى على قيد الحياة لا أكثر ولا أقل، وبوصفها بدقة الكمية التي تستطيع الوكالة أن تقدمها بناء على الحسنات الضئيلة التي تأتي من "المجتمع الدولي".

كانت الوجبة الرئيسية في قلندية ثريداً في صحن معدني مطلي بالقصدير قيل إنه يحتوي على تنويعة من المواد الغذائية تمت موازنتها موازنة خبيرة، إضافة إلى كسرة من الخبز وحبة من الفيتامين. ويفترض أن يتلقى الأطفال دون الخامسة

عشرة من العمر تكملة من الزلال (البروتين) – الرز، ومسحوق البيض، والخضروات – ولكن هذا نادراً ما يصل إليهم جميعاً لأن أموال الأونروا كثيراً ما تنفد، وأولئك الذين ينجحون في الحصول على الطعام يسرعون عائدين به إلى الأكواخ، وهناك يتم تقاسمه أو يعرض للبيع لأن ذلك هو الدفاع الوحيد ضد الفقر الشديد. ربع الأطفال يعانون من سوء التغذية: وهو رقم لم يتغير طوال أربعين عاماً تقريباً.

ثلثا رجال قلندية عاطلون عن العمل، وقد نشأ جيل لم يعرف العمل أبداً. ولم يذهبوا إلى أي مكان. لقد ذرعوا المخيم صعوداً ونزولاً في الشارع الوحيد المتموج. وتجمعوا خارج المجمع الإداري، ليستمعوا للنشرات الإذاعية من عمان التي يرسل الفلسطينيون عبرها رسائلهم من الشتات، من كل شتاتهم – في العالم العربي، ومن أمريكا، ومن أوروبة، ومن أمريكا اللاتينية – إلى عائلاتهم. وكانت هذه الرسائل لابد أن تتبعها الأغنيات الحزينة التي تغنيها أم كلثوم، "كوكب الشرق" المحبوبة، ويهمهم الرجال باللازمة الغنائية التي يعرفونها كلمة كلمة. ثم من عادتهم أن يمشوا المزيد أو أن يجلسوا على أي قمم حجرية ناتئة فوق الوحل، والتي كانت تخدم أيضاً لتكون أماكن تنظف عليها الملابس وتفرك، ثم حين يسمح الطقس، تترك عليها لتجف. وكل هؤلاء الرجال كانوا ينضحون بهوان لا يكترث لشيء، وكأنهم ينتظرون أن يتنزل عليهم إله يأتي لنجدتهم وهم يراقبون نساءهم وهن يرضعن الجيل التالي.

وقلت لمحمد جار الله "رأيت طفلين فقط يلبسان الأحذية"، ومحمد رجل مقدسي لطيف وساخر كان قد جاء معي إلى قلندية، وهو مثل معظم رجال الأونروا رجل فلسطيني.

وقال: "وأنا رأيت الاثنين نفسيهما."

"ولكن الجو بارد جداً."

"نعم أستطيع أن أشعر بذلك."

"حسناً، وماذا تفعلون حيال ذلك؟"

"حسناً، يا صديقي جون، ميزانيتنا معي في حقيبتي... ها هي... كما ترى، في هذا العمود تظهر النقود التي نملكها. وفي العمود التالي مصروفاتنا... طعام لكل فرد وبطانيات لكل فرد تقريباً. والعمودان يتوازنان، كما ترى. منذ ثلاث سنوات صرفنا على الطعام وسقوف للإيواء. وفي سنوات ثلاث أخرى... ربما سنستطيع أن نصرف على الأحذية. ذلك هو تقدمنا بعد عشرين سنة."

ترتفع أعلى تلة فوق المخيم في كتلة من الحجر الكلسي المتأكّل. وحين بدأ المطر يهطل، نزل شخص وحيد يمشي على المنحدر متوجهاً نحونا، وابنه يمسك بذيل معطفه الطويل الممزق. ومد الرجل يده وأمسك بيدي ولم يتركها. وقال بلغة إنجليزية متحفظة بطيئة: "أنا أحمد حمزة، أعمل في الترفيه في الشوارع. وفي يافا، كنت أعزف على عدة آلات موسيقية، وأغني باللغة العربية، والإنجليزية، والعبرية، ونظراً إلى أنني كنت فقيراً نوعاً ما، فقد كان من عادة ابني الصغير أن يبيع العلكة في الوقت الذي كان يقوم فيه القرد بحيله. وحين فقدنا بلدنا، فقدنا الاحترام. في أحد الأيام أوقف كويتي غني سيارته أمامنا. وكان واحداً من أولئك الذين جاؤوا إلى رام الله لقضاء عطلة الصيف. وصاح على ابني وقال: "أرني كيف يلتقط الفلسطيني طعام إعاشته!" فجعلت القرد يبحث عن الطعام في الأرض... في قناة التصريف في الشارع... وابني بحث مع القرد. ورمى الكويتي نقوداً معدنية وجثا ابني على ركبتيه ليلتقطها. هذا لم يكن صواباً، أنا كنت فناناً، لا شحاذاً... لا بل أنا الآن لست فلاحاً. لا تهتم."

وسألته: "كيف تشعر الآن حيال ذلك؟"

وهل تتوقع مني أن أشعر بالبغضاء؟ ماذا يشكل ذلك لفلسطيني؟ أنا لم أبغض اليهود قطعياً. صراحة، أنا لا أتذكرهم كثيراً في حيفا... نعم، أنا افترض أني أبغضهم الآن، أو ربما أن أشفق عليهم لغبائهم. فهم لا يستطيعون أن يربحوا، وذلك لأننا نحن الفلسطينيين الآن مثلما كان اليهود، ومثلنا فعل اليهود، فنحن لن نسمح

لهم أو للعرب أو لكم أن تنسوا. الشباب سوف يضمنون لنا ذلك، والشباب الذي يأتي بعدهم... أليست تلك هي الحقيقة يا جار الله؟"

وقال محمد جار الله: "يا صديقي، أنا هنا أمثل الأمم المتحدة. ويطلب مني أن أكون محايداً."

وقال أحمد حمزة: "محايداً؟ ما معنى محايد؟ هل أنت فلسطيني؟"

وقال جار الله: "نعم، أنا كذلك."

"وإذاً، فهل أقول أنا الحقيقة أم لا؟"

"إنك تقولها."

وحين مشى مبتعداً لاحظت انه كان يقود ابنه الذي تعثر.

وقال جار الله: "إنه الرمد الحبيبي (التراخوما) وقد أدى في الأيام الأولى إلى عمى المئات من الأطفال في المخيمات. وهو الآن تحت السيطرة."

وهطل المطر وضرب بقوة. وفي المبنى الأساسي الأول في المخيم، المبني من الإسمنت المسلح والبارد برودة لا تطاق حتى لكأن الجدران والأرضية فيه مصنوعة من الجليد، كانت هناك مجموعة من البنات دون سن العشرين يتعلمن الخياطة. وتجاهلتنا وجوههن، فقد أشفق عليهن الأجانب مرات كثيرة. ومع ذلك، فإن إحدى الفتيات تابعت عيني، ثم من دون إنذار وقفت وبدأت تصيح. وقامت الفتاة الجالسة إلى جانبها بشد وزرتها، وأنبتها همساً، ولكنها مع ذلك صاحت، وبكت، وتردد صدى صوتها المفعم بالألم المبرح في أرجاء الغرفة المتجمدة.

ووضع محمد جار الله معطفه الضخم حول كتفيها، وكأنه أراد أن يحميها من البرد. وقال وهو يهز رأسه: "آه، هذا صعب. وهي تسألك لماذا لا تستطيع أن تذهب إلى وطنها: إنها تقول: لماذا؟ لماذا؟ إنها في السادسة عشرة من عمرها وقد ولدت هنا. وكما تعرف، هذا هو المكان الوحيد الذي عرفته حتى الآن، وأشك، إن كانت قد ذهبت ولو إلى المسجد في القدس. ولكنها ما تزال

obeikandl.com

تعتقد أن هذا المكان ليس هو وطنها. وفي خيالها أنها تمتلك وطناً في مكان آخر."

وقمنا، أنا ودان هادارني، بقيادة سيارتنا ومتابعة مسيرتنا إلى رام الله، وهي على بعد بضعة أميال. وقد كانت رام الله، بأكثريتها المسيحية، هي المدينة الأم في الأرض المقدسة التي تم الاستيلاء عليها من الملك حسين ملك الأردن في حرب حزيران/يونيو السابقة، وكانت هناك أصوات من قبل في إسرائيل تزعم أن رام الله أرض إسرائيلية. وبالنسبة إلى سكانها الذين بلغ عددهم ستمائة ألف نسمة، كانت الضفة الغربية من الأردن هي بليستاين أو فلسطين، وهي الترجمة العربية لكلمة بلستينا الرومانية، على الرغم من أن بعض المؤرخين الإسرائيليين يصرون على أن الرومان فقط هم الذين استخدموا هذا الاسم ليمسحوا اليهودية من الخريطة. ومهما تكن المزاعم المتصلة بالكتاب المقدس مناسبة، فإن العرب الفلسطينيين كانوا هم الأكثرية المستمرة هنا، وكانوا يعيشون في الوديان الصّوانية ذات المدرجات المزروعة بأشجار الزيتون وبساتين البرتقال وكروم العنب التي ارتفعت فوقها المنارات وتحرك فيها الناس كالفراشات في الحقول، ولا يفتقدون إلا غابات البلوط، وكما يتفق اليهود والعرب، فإن الأتراك المدانين هم الذين قطعوا تلك الغابات.

في رام الله، كانت الساعة الكبيرة القائمة في ميدان المغتربين قد وقفت على الساعة العاشرة وسبع دقائق. ففي 6 حزيران/يونيو 1967، كانت هي أحد الأهداف الأولى التي أصيبت بالقذائف قبل ساعات قليلة من احتلال القوات الإسرائيلية للمدينة مقدمة لاحتلالهم الضفة الغربية. وكانت الشوارع الآن فارغة تقريباً. وفي طريق جانبي، كانت هناك أسرة مذهولة من الصدمة تحاول أن تتفحص خرائب بيتها الذي نسفه الإسرائيليون. وبدا الأمر وكأن "إرهابياً مشبوهاً" كان قد نام فيه. وكانت التدميرات هي المنظر المألوف في المدن والقرى في الضفة الغربية وفي غزة. لقد كان الفلسطينيون "مشبوهين" إذا كانوا سابقاً أعضاء في حزب سياسي، أو اتحاد عمالي، أو جمعية طلابية أو رابطة ثقافية، فجميع هذه النشاطات كانت محظورة.

وإذا تلفظوا بكلمة احتجاج ضد الاحتلال، فإن من الممكن أن يعتقلوا، أما الإضراب أو مجرد إغلاق متاجرهم الخاصة في أثناء ساعات العمل العادية فقد كان ممنوعاً. وقبل أن يحاكموا، بل قبل أن يتهموا، فإن عائلاتهم وفي الغالب جيرانهم، الناس الذين لم يكادوا يعرفونهم، وهم أبرياء في نظر السلطات نفسها، سيكونون قد عوقبوا عقوبات جماعية. وهم يجمعون في الشارع بغض النظر عن الساعة أو الطقس – النساء، والأطفال، والمسنون، والمرضى – ويحشدون ليشهدوا تدمير بيوتهم. وكان المقصود من ذلك أن يكون "درساً" لهم. وليس معروفاً إن كان الجنود اليهود الذين زرعوا المتفجرات قد فكروا في المفارقة الساخرة في أعمالهم، فإن شعوباً قليلة كانت قد رأت عقوبات جماعية أكثر مما رأى اليهود، لمجرد أنهم كانوا يهوداً. واليوم، إن مجرد كونك فلسطينياً يجعلك "مشبوهاً".

تحت الساعة المتوقفة في الميدان وخارج محل وكيل سفريات، كانت كلمة "إسرائيل"، على مجسم الكرة الأرضية الموجود في النافذة قد غطي تغطية حريصة بكلمة فلسطين، وكان هناك صف من الناس ممتد إلى الشارع. وكان هؤلاء المصطفون أناساً ذاهبين إلى أمريكا، وفي أمريكا جالية فلسطينية من حوالي خمسة آلاف نسمة. وقد سمح الإسرائيليون لهؤلاء أن يأخذوا نقودهم بالنقد الأجنبي على شرط أن يوقعوا على تصريح يفيد بأن رحيلهم كان طوعياً وأنهم لن يعودوا إلى بلدهم أبداً. وبموجب القانون الدولي، يعتبر هذا الإجراء غير قانوني، ولكن كلا الطرفين تآمر فيه، ومعظم الوجوه التي تقف في الصف استدارت بعيداً حين اقتربت منهم، كانت مرارتهم حقيقية ملموسة.

وسقنا سيارتنا جنوباً إلى أريحا، وهناك على بعد ميل من جدران أول مدينة في العالم، وهي الآن قد صارت كوماً من العصر الحجري الجديد الأنيق، هناك امتدت أضخم مدينة أشباح في العالم: وهي عقبة جبر، وكانت في السابق مخيماً لخمسة وعشرين ألف لاجئ جاؤوا من القدس، ومن الناصرة، ومن حيفا، وجميعهم هربوا في تدافع هلوع في ليلة 12 حزيران/يونيو في العام 1967، معتقدين أن تقدم الجنود اليهود نحوهم سوف يؤدي إلى مجزرة في صفوفهم. ومع الفجر في اليوم التالي

كانوا قد ذهبوا من المخيم، الخمسة والعشرون ألفاً كلهم، ذهبوا عبر جسر أللنبي إلى ما تبقى من المملكة الهاشمية الأردنية. ذهبوا كلهم ما عدا واحداً.

كان هو رئيس بلدية المخيم، وقد اقترب مني وهو يمشي منتصب القامة قاسي الظهر وقد وضع على كتفه عصا مكنسة وكأنها كانت بندقية. وطوال هذه الشهور العشرة مشى عبر الشوارع الفارغة، يحرس البيوت الفارغة بمكنسته، ويصيح مصدراً الأوامر إلى لا أحد. وكان الاضطراب العنيف في تلك الليلة، والذي سببه الخوف المعدي، قد ترك ذلك الرجل على ما يبدو على هذه الحال.

داخل البيوت ذات الجدران الطينية لم يطرأ أي تغيير منذ ليلة 12 حزيران/يونيو. لقد ترك الإسرائيليون المخيم مثلما وجدوه، ويعودون فقط لكنس الشوارع من أجل الألغام. في أحد البيوت كان هناك سرير أطفال، عمل سلال غير منتهٍ، وطاولة ممدودة. وفي بيت آخر دفتر صور تذكارية لزواج ملقى وهو مفتوح، ربما يكون سقط في الزحام، وقد أطل وجهان خجولان، باسمان، وإلى جانبهما نسخة من كتاب الخطوات الأولى في قواعد اللغة الإنجليزية ترفرف صفحاته، والأبواب مشرعة تفتحها وتغلقها ريح تنزلق بعيداً على التلال الوعرة، والذباب يهتز فوق علب الخميرة التي تقول الملصقات عليها إنها كانت "منحة من الشعب الأمريكي، لا يجوز بيعها أو تبديلها."

في مقالة "المحرَّم الأخير"، وهي مقالة نشرها إدوارد سعيد المولود في فلسطين قبل موته بقليل كتب يقول: "استئصال الأمريكيين المحليين أمر يمكن الإقرار به، وأخلاقيات هيروشيما يمكن مهاجمتها، والعلم القومي [للولايات المتحدة] يمكن وضعه علناً في اللهب. ولكن الاستمرارية المنهجية للاضطهاد الإسرائيلي طوال 52 سنة وسوء المعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين هي فعلياً أمر غير قابل للذكر، ورواية ليس لها إذن في أن تظهر."[1]

وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الفصل، يجتمع حشد من زعماء العالم في زيارة متحف تاريخ المحرقة في ياد فاشيم في إسرائيل. "وإن الحج الذي يقوم به عدد

كبير من الزعماء الأوروبيين إلى القدس"، كما روت الصحافية الإسرائيلية أميرة هاس:

يبين أنهم لا يرتدعون بالنقد الموجه إلى إسرائيل – إنهم يشاركون في حدث إعلامي لا يمكن أن يفسر إلا بوصفه دعماً فقط لإسرائيل ... وفي أحسن الأحوال، يمكن رؤية الزيارة بوصفها تشجيعاً لكلا الطرفين ليلتزما "بعملية السلام المتجدّدة". ولكن تشجيعاً من أجل ماذا؟... من أجل حاجز الفصل، الذي يستمر إنشاؤه بقوة، خلافاً لحكم محكمة العدل الدولية؟ من أجل السحق المستمر للقدس الشرقية الفلسطينية وفصلها عن بقية الأرض الفلسطينية، خرقاً للمطلب الدولي بأن تخدم القدس الشرقية لتكون عاصمة دولة الفلسطينيين؟ هل وزير الخارجية الألمانية، ورئيس الوزراء الهولندي، ورئيس الوزراء السويدي بعد أن يرسموا إشارة الصليب على أنفسهم ويبرهنوا أنهم يتذكرون المحرقة – هل يخططون أن يذكروا إسرائيل أن كل المستوطنات [اليهودية] وليس فقط المخافر الأمامية، هي كلها غير شرعية؟ هل سيطلبون من إسرائيل أن تخليها؟ ومن هو من المشاركين في الاحتفال الذي سيذهب ليرى الطرق الخاصة لليهود فقط وللفلسطينيين فقط؟ هل سيحتج أي واحد منهم على قوانين التمييز ضد المواطنين الإسرائيليين، لأنهم فقط غير يهود – عرب – ويهدد بفرض عقوبات إلى أن تلغى هذه القوانين؟

ثم خاطبت "الذكرى المتلاشية" للمحرقة. فكتبت تقول إن الذكرى تسترجع:

لا مع مجرد النصب التذكارية والاحتفالات، بل تسترجع بشكل رئيسي مع الرفض الذي لا يقبل المهاودة لإيديولوجية العرق السيد التي قسمت العالم إلى أعراق أعلى وأعراق أدنى... نحن [اليهود] وضعنا في قاع السلم في الإيديولوجية النازية. هل كانت هذه الإيديولوجية ستكون غير مجرمة لو أننا وضعنا في رتبة هي في الدرجات العالية؟[2]

إن أميرة هاس هي واحدة من مجموعة صغيرة بارزة من إسرائيليين جديرين بالإشادة جعلت الفلسطينيين قابلين للذكر في إسرائيل. ففي العام 1993، فعلت ما

لم يفعله صحافي إسرائيلي من قبل أبداً: لقد ذهبت لتعيش وتكتب التقارير من بين الناس في قطاع غزة، وهي "السجن المفتوح" الذي تبلغ مساحته [147] ميلاً مربعاً، والذي يجبر فيه مليون وربع المليون من الفلسطينيين على العيش في ظروف معدمة.

وبالنسبة إلى معظم الإسرائيليين فإن غزة، مثلها مثل الضفة الغربية، أرض غير معروفة، أرض تفريخ للإرهاب وللتطرف الإسلامي. وطوال ثلاث سنوات عاشت أميرة بين الفلسطينيين في غزة، بين سائقي سيارات الأجرة، والفلاحين، والأطباء، وربات البيوت، والنشيطين وقادة الإسلاميين. وفي رسالة يومية إلى جريدتها ها أرتز، أضاءت بوضوح عالماً حرم فيه الناس العاديون من الحريات الشخصية والاقتصادية الأساسية، وحرموا العدالة والكرامة، وكانوا فيه يتعرضون للإرهاب من جنود هم أفضل جنود العالم تجهيزاً ومن بيروقراطيين غير منظورين: وهم حامي هذا، وضابط ذلك. ووصفت كيف أن طبيباً في غزة:

لم يستطع أن يحصل على إذن لمرافقة أمه المريضة مرضاً في مراحله النهائية إلى المستشفى... لقد ماتت وحيدة. ولم يسمح لأخي الطبيب أن يغادر الضفة الغربية ليحضر جنازة أمه في غزة... وقد ارتبط شاب من مخيم اللاجئين في المغازي مع امرأة من مخيم الجلزون في الضفة الغربية ولم يكن قادراً على أن يزورها طوال خمسة أشهر. وشاب آخر، كانت خطيبته في الأردن، حرم من الحصول على إذن بالسفر... وزوجان يخضعان لمعالجة تتصل بالخصوبة... تسلما إذناً واحداً بالسفر ليوم موعدهما – للزوجة فقط.[3]

حين قابلت أنا أميرة لأول مرة، كانت مهتمة تود أن تشرح كيف أن غزة كانت باعثة لذكريات الماضي اليهودي. وقالت: "إن رغبتي في أن أعيش هناك، نشأ من الرعب من أن تكون متفرجاً." ووصفت لي اللحظة التي فرض فيها على أمها، حنه، أن تمشي من قطار المواشي إلى معسكر الاعتقال في بيرجن – بيلسن في يوم صيفي في العام 1944. "كانت هي والنساء الأخريات قد بقين عشرة أيام في القطار القادم من يوغوسلافيا. كن مريضات وبعضهن كن يلفظن أنفاسهن. ثم رأت أمي هؤلاء النساء الألمانيات وهن ينظرن إلى السجينات، مجرد نظر. هذه الصورة صارت

ذات أثر تكويني في نشأتي، هذا (النظر بمؤخرة العين) النظر الشزر الذي يستحق الاحتقار".

بقي والدا أميرة على قيد الحياة وقدما إلى إسرائيل، وقالت لي: لقد عرض عليهما بيت عائلة فلسطينية في القدس ولكنهما رفضاه "بسذاجة". وقالا: نحن لا نستطيع أن نأخذ بيت لاجئين آخرين." لقد انتقل تصميمهما الأخلاقي إلى ابنتهما. إن أميرة هاس في نظر بعض قرائها خائنة، بل هي أسوأ. وقالت لي: "أنا أتسلم رسائل تقول لابد أني كنت كابو في أول خلقي. [والكابو هو مراقب يهودي كان يعينه النازيون على المعسكر]"*

في العام 2002، ألهمني كتابها، شرب البحر في غزة: أيام وليال في أرض تحت الحصار، أن أعود إلى فلسطين وأعمل تكملة لفلمي الوثائقي الذي أخرجته في العام 1974، فلسطين ما زالت هي القضية. وهاتفتها من لندن، وكانت هي في رام الله تغطي "عملية الدرع الدفاعي"، وهي الهجوم الجبهي الذي قام آرييل شارون على مدن الضفة الغربية في شهري آذار/مارس ونيسان/ إبريل في ذلك العام. وقد أجرينا محادثتنا وهي تجثم على أرض بيت مع وجود إطلاق نار في خلفية المكان.

وقالت: "إن خرجت فسيقتلني الجيش."

"ولكنك إسرائيلية."

"لا يشكل ذلك فرقاً. كل إنسان هنا هدف."

وصلت إلى الضفة الغربية سريعاً بعد ذلك. وكان الجيش الإسرائيلي قد هاجم قبل قليل مخيم اللاجئين في جنين، باستخدام خمسين دبابة، والجرافات المدرعة، والطائرات العمودية المسلحة، والمقاتلات القاذفة اف 16. وفي كل يوم طوال أسبوع، أطلقت طائرات اف 16 ما متوسطه 250 صاروخاً ضد مساحة هي أقل من ميل مربع

* الكابو تعبير استخدمه النازيون في معسكرات الاعتقال لتسمية السجين الذي كانت تختاره قوات الأمن ليكون رئيس عصابة عمل مكونة من سجناء آخرين يختارون عادة من المجرمين. وكان الكابو يعاملون معاملة أفضل، وكثيرا ما عاملوا السجناء الآخرين بوحشية.(المترجم)

واحد من الأكواخ التي تؤوي خمسة عشر ألف نسمة، نصفهم من الأطفال. وقد قتل أربعة وخمسون شخصاً وجرح المئات من الناس. والذين دافعوا عن المخيم قلة من عشرات الرجال المسلحين بالبنادق وبمصائد المغفلين البسيطة الصنع. وقد قتلوا ثلاثة وعشرين جندياً إسرائيلياً. وهذه المقاومة، وتكلفتها الدموية للجيش الغازي، أهاجت شارون بالغضب الشديد. وقد وصف المدافعين بأنهم "إرهابيون"، ووافق على تدمير بيوت أربعة آلاف لاجئ، وبعض البيوت دمرت وسكانها في داخلها.

وقد تم جمع آلاف الرجال الفلسطينيين وقد خطفوا في الواقع. والعديد من الفلسطينيين، وفق ما تقول منظمة العفو الدولية، قد "عذبوا منهجياً."[4] وتقول منظمة العفو: إن إسرائيل "هي البلد الوحيد على سطح الأرض التي يعتبر فيها التعذيب وسوء المعاملة جائزاً قانونياً." وفي جنين، فإن اللاجئين الذي كانوا بلا مأوى أجبروا ثانية أن يكونوا بلا مأوى: وبالنسبة إلى بعض المسنّين، كانت تلك هي المرة الخامسة لهم منذ النكبة، أي "الكارثة"، تأسيس إسرائيل في 14 أيار/مايو 1948. لم يكن يوجد إلا القليل فقط من الطعام والماء، ولا طاقة ولا مساعدة طبية طارئة، وتعرض الأجانب المتطوعون الذين حاولوا أن يدخلوا جنين لإطلاق النار عليهم، وكان إيان هوك، وهو بريطاني عمره 54 عاماً يعمل مع الأنروا، قد أطلقت عليه النار في ظهره وترك ينزف حتى الموت في الوقت الذي كانت سيارة الإسعاف تحمله وكان الجيش الإسرائيلي يؤخرها.

في وسائل الإعلام الإسرائيلية، كان هناك سخط غاضب من الاتهامات في الخارج بوجود مجزرة. وقد كتب مراسل لندن لجريدة هآرتز إلى الغارديان ليشتكي، ونوقشت تعاريف "المجزرة" على أعمدة الرسائل. لقد قتل المدنيون بدم بارد، ومن جملتهم أطفال اغتالهم القناصون العسكريون وسحق رجل معوق إعاقة شديدة في بيته بالجرافة برغم التحذير من أنه كان في الداخل (انظر الصفحة 75)، ولكن هذه القضايا لم تناقش. ومثل هذه التفاصيل كانت شديدة الوحشية ولو لأولئك الذين كان يعتبر رد فعلهم الدفاعي عن إسرائيل في السابق رداً لا يمكن أن يدحض.

وفي الوقت الذي كان هدف الجنرال شارون المصرح به من مهاجمة الضفة الغربية هو "سحق البنية التحتية للإرهاب"، فقد كان هدفه الحقيقي هو أن يُعلَم بشكل لا يُمحى حدود محيط دولته القائمة على التمييز العنصري وحدود مستعمرتها. هل ستبرهن جنين على تدميره؟ للحظة، بدا "المجتمع الدولي" وكأنه سيقف لإسرائيل. وفي جنيف، بدأت هيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان تجمع الأدلة، وكان أول شاهد هو ممثل منظمة العفو الدولية، وقد تحدث بغضب علني تتجنب تلك المنظمة عادة إظهاره.

وقال: "خروقات خطيرة لمواثيق جنيف." اقترفتها السلطات الإسرائيلية كل يوم، وكل ساعة لا بل كل دقيقة ضد الفلسطينيين. وقد نفذت القوات الإسرائيلية تنفيذاً منتظماً أعمال القتل من دون أن تكون أي أرواح معرضة للخطر. وتم التدمير المنهجي لأكثر من 600 بيت فلسطيني، وهو الأمر الذي جعل الآلاف بلا مأوى، والأغلبية العظمى من الأطفال... وقد حققت بعثات العفو الدولية في الهجمات الحديثة التي قام بها الجيش الإسرائيلي على المدن، ومن جملتها مخيمات اللاجئين. وفي كل مرة دخلت فيها الدبابات إلى المنطقة، تحركت فوق السيارات، ومشت فوق الجدران، وحطمت البيت وواجهات المحلات... واستخدمت النيران الكثيفة ضد مناطق سكنية مكتظة بالسكان... وقد قطعت خدمات الكهرباء، والماء، والهاتف... وهي معاملة كان القصد منها على ماهو ظاهر إيذاء السكان والحط من قدرهم، وقام الجنود الإسرائيليون الذين احتلوا الشقق السكنية بتدنيسها بشكل منهجي. وقتلت [القوات] ستة من المساعدين الطبيين، ومن جملتهم طبيبان. وأطلقت النار إطلاقاً منتظماً على سيارات الإسعاف ومن بينها سيارات الإسعاف التابعة للجنة الدولية للصليب الأحمر.

ودعا إلى "إنهاء شلل المجتمع الدولي" في حماية الحياة في فلسطين.[5]

وقد أدانت مجموعة الأمم المتحدة، التي مثلت ثلاثاً وخمسين حكومة، إسرائيل لقيامها "بالقتل الجماعي" للفلسطينيين و"الخروقات الفاضحة"، للقانون الإنساني، وأكدت "الحق المشروع للشعب الفلسطيني في المقاومة". وأقر القرار

بأكثرية أربعين صوتاً ضد خمسة، مع امتناع سبعة عن التصويت، ومعظم دول الاتحاد الأوروبي صوتت لصالح القرار. وكانت مسودة أقوى قد ساوت "إرهاب الدولة" من إسرائيل مع "إرهاب" الفلسطينيين المتفجرين الانتحاريين. ولم يكن حذف كلمات "إرهاب الدولة" كافياً للحكومة البريطانية التي طالبت، في تصويتها ضد القرار، أن يعمل المزيد ضد الهجمات الانتحارية الفلسطينية، التي "استفزت"، الهجوم الإسرائيلي "وأطلقت دائرة العنف."[6]

إن بريطانيا هي المهندس الرئيسي في الكارثة التاريخية لفلسطين. ففي العام 1917، وكانت عين بريطانيا على تأسيس دولة عميلة لها في الشرق الأوسط لمراقبة قناة السويس والطرق التجارية لبريطانيا إلى الهند، وعد وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور بقيام "وطن قومي للشعب اليهودي" في فلسطين، مضيفاً، "لن يعمل أي شيء قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة." ويرى بعض المؤرخين هذا الوعد بوصفه أعظم نصر حققته جماعة الضغط (اللوبي) الصهيونية.

واليوم، يُلزم وعد بلفور الحكومة البريطانية بمسؤولية خاصة لتفي بالتزامها، والتزامات الذين سبقوها منذ العام 1967، لتدعم العمل الدولي الهادف إلى إنهاء احتلال إسرائيل غير الشرعي للضفة الغربية وغزة. إن البيانات الصادرة عن طوني بلير ووزير خارجيته جاك سترو، تعطي باستمرار هذا الانطباع. ففي العام 2001 ومرة أخرى في العام 2005، عقد بلير "مؤتمرات دولية" ترافقها دعاية مفرطة عن فلسطين في لندن. وكلا الحدثين لم ينتج أي شيء ذا قيمة. وكانا عملين معوقين من أعمال العلاقات العامة التي أعطت بلير عناوين عريضة "لصانع السلام" الزائف، وهو الذي أخذ بريطانيا إلى الحرب أكثر من أي رئيس وزراء حديث آخر. وهناك أمر أكثر أهمية من ذلك، هو أنهما أخفيا حقيقة أن الدعم البريطاني للقمع الإسرائيلي كان يتسارع سراً.

إن فهم هذا الخداع حيوي في تقدير مدى الظلم الذي وقع على الفلسطينيين: وهو ما دعاه نلسون مانديللا "أكبر قضية أخلاقية في عصرنا." ففي شهري

أيار/مايو وتموز/يوليو من العام 2001، كشف التقرير الخارجي من جينز أن بريطانيا وفرنسا أعطتا إسرائيل "الضوء الأخضر" لمهاجمة الضفة الغربية. وقد عرضت على حكومة بلير خطة تعتبر من الأسرار العليا من أجل القيام بغزو كل من الضفة الغربية وغزة بكل قوة وإعادة احتلالهما، وهما اللتان كانتا آنئذ تداران من السلطة الفلسطينية، سلطة ياسر عرفات، بتسامح على مضض من الإسرائيليين. وكانت الخطة تقضي باستخدام "أحدث نفاثات اف – 16 واف – 15 ضد كل المنشآت الرئيسة للسلطة الفلسطينية [و] 30.000 ألف رجل أو ما يساوي جيشاً كاملاً." ولكن هذه الخطة كانت تحتاج إلى "الزناد" من تفجير انتحاري يسبب "العديد من الوفيات" والإصابات [لأن] "الانتقام" عامل حاسم. وهذا "سوف يدفع الجنود الإسرائيليين إلى تدمير الفلسطينيين."[7]

والأمر الذي كان قد نبّه شارون ودائرته الداخلية، وبشكل ملحوظ مؤلف الخطة، العميد شاؤول موفاز، رئيس الأركان الإسرائيلي، هو اتفاق سري عقد بين عرفات وحماس، المنظمة الإسلامية المسؤولة عن عدد من الهجمات الانتحارية، يقضي بأن تتوقف هذه الهجمات. فبعد 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، قلق شارون ونظام حكم الليكود من أن "حل" الشرق الأوسط سيكون منتجاً فرعياً لحرب أمريكا المسكوكة حديثاً، أي، "الحرب على الإرهاب"، وخصوصاً حين نطق جورج دبليو. بوش فجأة بكلام لا علاقة له بما سبقه، وهو أن بوش كان دائماً قد ساند "الحلم" بدولة فلسطينية. كان لا بد من عمل شيء.

في 23 تشرين أول/نوفمبر من العام 2001، اغتال عملاء إسرائيليون قائداً من حماس، وهو محمود أبو هنود. وبعد اثني عشر يوماً، جاء رد الفعل الحتمي في هجمات انتحارية منسقة ضد إسرائيل. وقد كتب أليكس فيشمان، وهو كاتب استخبارات على اتصال جيد بالصحيفة الإسرائيلية اليومية يديعوت أحرونوت، يقول: "كائناً من كان هو الذي قرر تصفية أبو هنود، فقد كان يعرف سلفاً أن ذلك سيكون هو الثمن، وكائناً من كان الذي أعطى الضوء الأخضر للقيام بهذا العمل، فقد كان يعلم علماً كاملاً أنه بفعله ذلك كان يمزق، بضربة واحدة،

اتفاق كلمة الشرف (الجنتلمان) الذي عقد بين حماس وبين السلطة الفلسطينية [التي] ما كانت لتوقع نفسها بيد إسرائيل وتعطيها الفرصة لتقوم بتوجيه الهجمات الجماعية على مراكز سكانها."[8]

وعند صدور إشارة البدء، وفي غضون أسابيع هاجم الجيش الإسرائيلي الأراضي المحتلة بقوة غير مسبوقة. وبالنسبة إلى موفاز، الذي كان يعرف أن عرفات كان يكافح من أجل الوصول إلى تسوية متفاوض عليها، فإن هذا "النصر" سوف يثأر لما رآه انسحاباً مخجلاً لإسرائيل من لبنان.[9] وكانت النتيجة تقريباً تدمير السلطة الفلسطينية وقاعدة عرفات السياسية. وأصدر نظام حكم بوش البيان المسكن المعتاد حول "إنهاء العنف" ووضع المسؤولية على عرفات. وأما بلير "صانع السلام" فلم يقل شيئاً.

كان الاقتحام وحشياً. وحين وصل موفد الأمم المتحدة إلى الشرق الأوسط، تيري رود لارسون، وسمح له الإسرائيليون أخيراً أن يدخل إلى جنين، وصف ما رأى بأنه "فصل محزن ومخز في تاريخ إسرائيل." وقال إن الجيش الإسرائيلي قد منع العون الإنساني من الدخول إلى المخيم، ومن جملته قوافل الطعام. وطالب لارسون، مع وزراء خارجية أربع حكومات أوروبية، بتحقيق دولي.[10] وكان الأوروبيون صرحاء على غير المعتاد (باستثناء بريطانيا) إلى درجة أن القرار رقم 1405 أقر بسرعة من مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وأنشأ فريق تحقيق من "خبراء متميزين" مع تعليمات بكشف الحقيقة بشأن جنين.

طوال خمسة وثلاثين عاماً، حرك الإسرائيليون واشنطون تحريكاً ناجحاً ليجعلوها تضمن أن الوكالة الوحيدة من الأمم المتحدة التي يسمح لها بالدخول إلى الضفة الغربية وغزة كانت هي الأنروا المفقّرة، والتي كان العون الإنساني هو بشكل صارم ما تتعامل به. وحين استعد فريق الأمم المتحدة ليطير إلى جنين، قابل كوفي عنان، أمين عام الأمم المتحدة، مسؤولين كباراً أمريكيين وقام بعد ذلك بإلغاء التحقيق بسبب "رفض الحكومة الإسرائيلية أن تتعاون." إن كون الفظاعة الوحشية قد وقعت في مكان خارج إسرائيل، وفي أرض محتلة احتلالاً غير شرعي، لم يكن على ما يظهر عاملاً يؤخذ بالاعتبار.

لقد كانت الأمم المتحدة في أجبن موقف لها، وعنان يؤكد دوره بصفته موظفاً حكومياً لدى الولايات المتحدة الأمريكية. واتضح العار في شهر تشرين الثاني/نوفمبر الثاني حين نشرت منظمة العفو الدولية ما وصفته بأنه أكمل تحقيق لها أجرته في أي مكان. وبشكل فوق العادة، دعت منظمة حقوق الإنسان الحكومات التي كانت موقعة على مواثيق جنيف إلى أن تطبق المحاكمة على الجنود الإسرائيليين "المسؤولين عن جرائم الحرب" في جنين. وكانت تلك الجرائم: القتل غير المشروع، واستخدام المدنيين دروعاً بشرية، ومنع المساعدة الطبية عن المصابين بجروح، وتعذيب السجناء، والتدمير الوحشي لأربعة آلاف بيت مات فيها كثيرون في أثناء تدمير البيوت بالجرافات.

واستشهدت المنظمة بقضية جمال فايد، وهو رجل معوق إعاقة شديدة وعمره 38 سنة. وقالت منظمة العفو، إن عائلته:

قد أبرزت هويته للجنود، الذين كانوا يعدون لتدمير بيته، وذلك ليبرهنوا لهم أنه كان مشلولاً، وأنه لم يكن يستطيع أن يخرج من البيت من دون مساعدتهم. ورفض الجنود أن يساعدوه وبعد قليل اقتربت الجرافة من البيت. وصاحت الأسرة على السائق ليتوقف. ولم يتوقف، وكان جمال فايد مازال محصوراً في الداخل، فقتل.

ووصفت منظمة العفو كذلك كيف أن ولدين، أحدهما عمره ست سنوات، والآخر عمره اثنتا عشرة سنة، كانا قد قتلا بنيران دبابة إسرائيلية وهما ذاهبان لشراء الحلوى بعد أن كان الجيش الإسرائيلي قد أعلن أن منع التجول قد رفع. وقد تجاهلت الحكومة الإسرائيلية منظمة العفو، مثلما سبق لها أن طردت الأمم المتحدة.[11]

ليس هناك بلد آخر على وجه الأرض يتمتع بمثل هذه الحصانة، التي تسمح لها أن تتصرف من دون عقوبة، مثل إسرائيل. وليس هناك أي بلد آخر يمتلك مثل هذا السجل من الخروج على القانون: وليس هناك واحدة من الحكومات الاستبدادية في العالم تقترب من سجل إسرائيل.إن إسرائيل هي بطل العالم غير المنازع الخارق للقانون الدولي – وهو قانون تأسس نتيجة لجرائم مقترفي المحرقة اليهودية.

إن إسرائيل التي كانت قد ولدت استهانة بالقرار (46) من مجلس الأمن في الأمم المتحدة وهو القرار الذي طالب اليهود والعرب أن "يمتنعوا... عن أي نشاط سياسي يضر بالحقوق، أو بالمطالب أو بموقف كل مجتمع،" إن إسرائيل هذه قد تحدت منذ ذلك الوقت 246 قراراً لمجلس الأمن وأكثر من ضعف هذا الرقم من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة.[12] إن حق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم، وهو الحق المقدس المعزز بقرار الأمم المتحدة رقم 194، كما تقول إحدى الدراسات: "قد أعيد تأكيده من المجتمع الدولي 135 مرة في المدة بين الأعوام 1948 – 2000. ليس هناك شيء مثله في تاريخ الأمم المتحدة، وهو ما يرفع هذا القرار من (توصية) إلى تعبير عن الإرادة المصممة للمجتمع الدولي."[13]

وتحدت إسرائيل الأمم المتحدة في كل مرة. وكلمات هذا القرار وغيره من القرارات مشابهة شبهاً لافتاً للنظر لكلمات قرار مجلس الأمن الذي اتخذ في العام 1990 مطالباً بخروج صدام حسين من الكويت. وحين لم يخرج، هوجم بقوةٍ قادتْها أمريكا وخربت البنية التحتية لبلده. وحين تتجاهل إسرائيل بانتظام أوامر الأمم المتحدة للخروج من الأراضي الفلسطينية التي تحتلها احتلالاً غير شرعي ووحشي، فإنها تكافأ بالهبات السخية وبالأسلحة من الولايات المتحدة وبريطانيا. في عام واحد، هو العام 2003، طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة 8 بلايين دولار في ضمانات قرض. وكان المسؤول الإسرائيلي الذي أرسل إلى واشنطون ليفاوض عن هذه الضمانات هو آموس يارون، وهو الذي كان القائد العسكري في بيروت في العام 1982 حين حدثت المجزرة التي قتل فيها عدة آلاف من الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا. وقد منحت له الأموال المطلوبة.

هذا الخروج المقبول على القانون منسوج في بنية إسرائيل. لقد وجدت حالات كثيرة مثل جنين. ففي عشية تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948، قامت عصابات الأرغون وشتيرن، وهما مجموعتان إرهابيتان يهوديتان، بمجزرة قتلوا فيها 250 مدنياً، ومن بينهم أكثر من مائة من النساء والأطفال، في مدينة دير ياسين الفلسطينية. وقد بقي منهم على قيد الحياة خمسة وعشرون نسمة فاقتيدوا لاستعراضهم في شوارع القدس الغربية

اليهودية ثم أخذوا إلى مقلع حجارة وقتلوا، في الوقت الذي تم طرد الآخرين ممن بقوا على قيد الحياة من بيوتهم.[14] مثل هذه الفظاعات الوحشية كانت شائعة – وكانت تعتبر، في الحقيقة، عمليات أساسية في إرغام الفلسطينيين على الفرار من أرضهم – على الرغم من أن القيادة الصهيونية في فلسطين قبل قيام إسرائيل كانت تريد من العالم أن يصدق أن تلك الفظاعات الوحشية كانت من عمل "المنشقين."

في العام 1948، كان هناك "منشق" رئيسي هو مناحيم بيغن، وهو تابع للصهيوني المتطرف زئيف جابوتنسكي الذي كان يعتقد بالحق اليهودي بكل الأرض التي يحددها الكتاب المقدس لإسرائيل "من النيل إلى الفرات."[15] وفي العام 1941، اقترح نائب بيغن، إسحق شامير، أن تقوم عصابة شتيرن بالتعاون مع النازيين للمساعدة على هزيمة البريطانيين، وأرسل رسالة تعبر عن تعاطفها مع "التصور الألماني" من أجل "نظام جديد لأوروبا" وتعرض القيام بحماية مصالح النازيين في الشرق الأوسط.[16] وبعد أن أعلنت عصابة الأرغون خارجة عن القانون، أسس بيغن حزب حيروت، وهي منظمة شجبها ألبرت أينشتاين واليهود البارزون الآخرون بوصفها "قريبة قرباً حميماً في تنظيمها، وطرائقها، وفلسفتها السياسية، وجاذبيتها الاجتماعية إلى الأحزاب النازية والفاشية."[17]

واستمر بيغن وشامير كلاهما في العمل إلى أن قادا حزب الليكود وصارا رئيسي وزراء. وفي العام 1982، شن بيغن غزواً دموياً على لبنان، وانتهى إلى موت ثمانية عشر ألف شخص، معظمهم من اللاجئين الفلسطينيين.[18] وعن الهجوم على المدنيين، ومن جملته القصف المستمر بالقنابل لبيروت وإشباع جميع مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الكبيرة، الموجودة في جنوب لبنان، بقصفها بالقنابل قصفاً ساحقاً، قال بيغن: "لا تساورني أدنى شكوك ولا للحظة واحدة في أن السكان المدنيين يستحقون العقاب."[19] ووصف الفلسطينيين بأنهم "وحوش برجلين اثنتين."[20] وبالنسبة إلى المجزرة التي وقعت في صابرا وشاتيلا في بيروت، واعتبر الإسرائيليون مسؤولين عنها، استبعد بيغن هذا العار بوصفه معاداة للسامية من "الغوييم"، وهو التعبير التحقيري الذي يطلقونه على غير اليهود.[21]

وأشهر منشق هو آرييل شارون، ففي وقت كتابة هذا الكتاب ما زال هو رئيس الوزراء الحالي لإسرائيل، على الرغم من أنه مريض مرضاً خطيراً بعد إصابته بالجلطة. ففي العام 1953، كان شارون آمراً للوحدة 101 من الجيش الإسرائيلي، وكانت "مهمته" القيام "بتنفيذ أعمال انتقامية عبر حدود الدولة." وفي عمليتها الأولى، في آب/أغسطس من العام 1953 قتلت الوحدة عشرين لاجئاً في مخيم البريج، في غزة، ومن بينهم سبع نساء وخمسة أطفال. وفي ليلة 14 تشرين الأول/أكتوبر، ألقى شارون الحصار على قرية قبية. وكانت الأوامر لديه من القيادة المركزية هي "مهاجمة القرية واحتلالها احتلالاً مؤقتاً، والقيام بالتدمير وبأقصى عمليات القتل، وذلك من أجل طرد سكان القرية من بيوتهم." وأصدر تلك الأوامر إلى رجاله بهذه الكلمات: "الهدف: مهاجمة قرية قبية (هكذا)، واحتلالها وإحداث أقصى ضرر للحياة وللممتلكات، ووقعها الرائد آرييل شارون." والتأكيد الموضوع على الوثيقة الأصلية هو تأكيد منه هو. وقد قتل تسعة وستون مدنياً، والأكثرية منهم كانت من النساء والأطفال. ونتيجة لذلك، صوت مجلس الأمن في الأمم المتحدة ليسجل "أقوى زجر" يلوم إسرائيل.[22]

ومثل مصير كل القرارات الأخرى، كان مصير هذا القرار التجاهل – على الرغم من أمر فوق العادة، وهو أن وزارة خارجية الولايات المتحدة عبرت عن "أعمق تعاطفها" مع الضحايا وطالبت بأن أولئك المسؤولين عن المجزرة "يجب أن يجلبوا للمساءلة."[23] كان شارون حينذاك سيئ السمعة. وفي العام 1971، دمرت قواته ما يقارب ألفي بيت في قطاع غزة، فاقتلعت بذلك اثني عشر ألف فلسطيني ورحلت المئات إلى المنفى في الأردن، وفي لبنان، وفي سيناء التي كانت تحتلها إسرائيل.[24]

وفي شهر حزيران/يونيو من العام 1982، أمر الجنرال شارون، وكان حينذاك وزيراً للدفاع، بغزو لبنان لتدمير "البنية التحتية الإرهابية" لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي كانت تتمركز في بيروت. وكان هذا الغزو حدثاً مروعاً، قاتلاً. وقد ألقى الإسرائيليون الحصار على بيروت الغربية الإسلامية، وقطعوا الماء، والكهرباء وإمدادات الطعام وقصفوا المدينة بالقنابل، واستخدموا القذائف الفسفورية والقنابل

العنقودية التي زودهم بها الأمريكيون في الشوارع المكتظة بالسكان. وفي أثناء أول أسبوعين قتل ما يقدر بأربعة عشر ألف فلسطيني ولبناني وجرح عشرون ألفاً، وكانت الأكثرية الساحقة منهم من المدنيين. ووفقاً لصندوق الامم المتحدة لرعاية الأطفال (اليونسيف)، فقد قتل عشرة أطفال في مقابل كل مقاتل فلسطيني.[25]

وفي شهر أيلول/سبتمبر، قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن تخلي بيروت، وتحت إشراف قوة دولية أركب آلاف من المقاتلين الفلسطينيين على ظهر سفينة كانت ستأخذهم إلى بلدان عربية أخرى، في الوقت الذي تبقى فيه نساؤهم وأطفالهم خلفهم. ومع اكتمال الإخلاء، زعم شارون أن "2000 من الإرهابيين" بقوا في مخيمات اللاجئين، من دون أن يقدم أي دليل، وأمر "بتطويق وإغلاق" مخيمي صبرا وشاتيلا. وفي 16 أيلول/سبتمبر، سمح شارون للكتائب، الذين كانوا قد تدربوا تدريباً فاشيستياً، وكانت إسرائيل قد سلحتهم ودفعت لهم، ولهم تاريخ من الوحشية والبغضاء مع الفلسطينيين، سمح لهم بدخول هذين المخيمين. وقد قاموا بالقتل المنهجي للشيوخ، وللنساء، وللأطفال.[26]

واستغرقت المجزرة أقل بقليل من أربعين ساعة. وكان الكتائب على اتصال مستمر مع الإسرائيليين، الذين كانوا يستطيعون رؤية داخل المخيمين من برج المراقبة ومن طلقات الإنارة التي أطلقت لتضيء طرق التقدم لعملائهم، في الوقت الذي كان الإسرائيليون فيه يجبرون اللاجئين الفارين على العودة إلى المخيمين. قال الإسرائيليون إن القتلى 700، وترتفع تقديرات أخرى إلى 3.500، ويحتمل أن الرقم الحقيقي 1700قتيل[27].

وكان روبرت فيسك من التايمز واحداً من أوائل من دخلوا مخيم شاتيلا بعد أن كان القتلة قد غادروا. وقد استذكر التجربة في كتابه ارحموا الأمة. وكتب يقول: في كل مرة خطوت فيها خطوة "تحركت الأرض نحوي. وتحرك سد حاجز من القذر والطين كله واهتز من وزني بطريقة مرعبة، نابضية، وحين نظرت إلى الأسفل ثانية، رأيت أن الرمل المكوم لم يكن سوى غطاء خفيف فوق المزيد من الأطراف والوجوه الآدمية. وتبين أن حجراً كبيراً لم يكن إلا معدة.

كنت أستطيع أن أرى رأس رجل، وصدراً عارياً لامرأة، وأقدام طفل. كنت أمشي على عشرات الجثث التي كانت تتحرك تحت أقدامي... كانت العائلات قد أوت إلى غرف نومها حين جاء المسلحون من خلال الباب الأمامي وكانوا هناك يتمددون... العديدات من النساء اغتصبن، وكانت ملابسهن ملقاة حول أرض الغرفة، وأجسادهن العارية مرمية فوق أزواجهن أو إخوانهن، وكلهم الآن سود من الموت[28].

ربما كان رعب صبرا وشاتيلا هو بداية النهاية للحصانة الأخلاقية التي طلبتها إسرائيل واستغلها في الغرب، وخصوصاً في أوروبة. إن قراءة كتاب ارحموا الأمة، وهو رواية فيسك عن المجزرة، التي كانت مدمرة لإسرائيل، كانت هي أقوى قراءة للمجزرة بسبب محاولات فيسك الملحة لإعطاء الإسرائيليين كل فرصة ممكنة للإجابة عن لائحة الاتهام لجريمتهم – وهي جريمة كان صحافيون آخرون مستعدين للتغطية عليها، أو الصفح عنها ببعض الالتواء في المعنى اللغوي للكلام، لا بل بإجراء حوار بين أنفسهم إن كانت قد وقعت المجزرة فعلاً أم لا: وهو "حوار" سوف يجد صداه بعد "القتل الجماعي" في جنين بعد عشرين عاماً تلت.

وفي 16 كانون الأول/ديسمبر، من العام 1982، دعا قرار من الجمعية العامة في الأمم المتحدة هذه المجزرة في صبرا وشاتيلا "عملاً لإبادة الجنس."[29] وفي شهر شباط/فبراير التالي لم تقدم هيئة تحقيق إسرائيلية رأسها إسحق كاهان، رئيس المحكمة العليا، أي دليل على أن أي إرهابي واحد كان موجوداً في صبرا وشاتيلا حين هوجم المخيمان.[30] وسمعت هيئة التحقيق كيف سمحت القوات الإسرائيلية للكتائب بأخذ الأسرى الذين "اختفوا" بعدئذ، ووجدت أن أرييل شارون تحمل "المسؤولية الشخصية" عن المجزرة.[31]

وفي جميع أنحاء العالم، سعت كل الدعايات الموالية لإسرائيل أو جماعات الضغط الصهيونية أن تسيطر على الضرر بالإصرار على أن تقرير هيئة كاهان أظهر قوة "ديمقراطية" إسرائيل، ولكن ما كشفته الهيئة لم يغير شيئاً. ولم يلحق العار بشارون في إسرائيل. وبالنسبة إلى الكثيرين من مواطنيه، بقي بطلاً. وبيغن،

بدوره، وجه تهديداً علنياً للصحافيين الذين يشيرون إلى تآمر إسرائيل ومشاركتها في المجزرة بوصفهم حملة "التشهير بالدم"* ضد كل اليهود.[32]

وفوق ذلك، فقد أخفقت الهيئة في تحديد الواضح: وهو أن جريمة ضد الإنسانية قد اقترفت. لا بل إن كلمة "مجزرة" قد عقمت لتصير "الأحداث" وبشكل حاسم لم تستخدم كلمة "الفلسطينيين" قطعياً. ولهذه المغالطة السفسطائية غرض جاد طبعاً. وكما قالت، رئيسة وزراء إسرائيل السابقة، غولدا مائير، فإن الفلسطينيين "لم يوجدوا مطلقاً" لقد كانوا مجرد "إرهابيين" فقط.

هذا التجريد من الإنسانية يجري عبر دعاية الدولة الإسرائيلية، ومعرفة وصحافة، مع استثناءات مشرفة. وكما يشير فيسك في كتابه ارحموا الأمة، إن الإسرائيليين، بوضعهم أمة بأكملها تحت كلمة "الآخر" يكونون قادرين على [وصف] أعدائهم بأنهم شر أكثر مما هم أعداء [لكي] لا يجرؤ فرد عاقل على النظر في مطالبهم السياسية بوصفها مطالب جدية. وزيادة على ما تقدم:

فإن أي شخص عبّر عن التعاطف مع الفلسطينيين كان يعتبر بوضوح معادياً للسامية – ولذلك فهو ليس معادياً للإسرائيليين أو لليهود فقط، بل هو موال للنازيين... فإذا سمّت إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية عدواً لها، فإن نزاع الشرق الأوسط يكون آنئذ قد اشتمل على فريقين متعاديين. ولكن إذا اعتقد العالم أن الفلسطينيين كانوا شراً، فآنئذ لا يكون النزاع موجوداً. كانت المعركة بين الحق والباطل، بين داوود وجالوت، بين إسرائيل و"الإرهاب."[33]

وفي ذروة الفظاعات الوحشية التي حدثت في لبنان، كتب الدكتور شلومو شملزمان، وهو ناج من المحرقة بقي على قيد الحياة، رسالة إلى الصحافة الإسرائيلية، أعلن فيها أنه كان سيضرب عن الطعام إلى أن توقف إسرائيل القتل. وكتب يقول:

---

* وهي الاتهامات الموجهة إلى اليهود بأنهم يستخدمون الدم البشري في طقوسهم الدينية. وعلى وجه الخصوص دم أطفال المسيحيين.(المترجم)

في طفولتي، عانيت الخوف، والجوع، والإذلال حين عبرت من غيتو وارسو، من خلال معسكرات العمل، إلى بوكينوولد. واليوم، بوصفي مواطناً في إسرائيل، لا أستطيع أن أقبل تدميراً منهجياً للمدن، والبلدان، ومخيمات اللاجئين.لا أستطيع أن أقبل القسوة التكنوقراطية في القصف بالقنابل... إنني أسمع أصواتاً مألوفة اليوم... إنني أسمع "عرباً قذرين" وأنا أتذكر "يهوداً قذرين". وأسمع عن "مناطق مغلقة" وأتذكر أحياء اليهود (الغيتو) والمخيمات. وأسمع "وحوشاً برجلين اثنتين"... وأنا أتذكر "دون البشر"... أشياء كثيرة في إسرائيل تذكرني بأشياء كثيرة...[34]

مخيم قلندية اليوم هو نقطة التفتيش الإسرائيلية الرئيسية على الطريق من القدس إلى رام الله. لقد كنت قد عدت هناك في الثمانينيات من 1980 وفي التسعينيات من 1990، ولكن حين عدت مرة أخرى في العام 2002 لم أعرف من المخيم إلا القليل منه. كان محاطاً بالخنادق المحصنة بلفة فوف لفة من الأسلاك الشائكة، واستبدلت بالخيام أكواخ قوية. وصف الناس أمام صنبور الماء لم يتغير، والطرق والممرات مختنقة بالغبار في الصيف وتتحول إلى وحل أسود كالسكر المحروق في الشتاء.

وفي مكتب الأنروا سألت عن محمد جار الله، ولكنه كان قد توفي، وأما أحمد حمزة، مؤانس الشوارع، فقد أُخذ بعيداً... وهو مريض جداً." ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن ابنه، الذي كان الآن قد صار أعمى بالتأكيد. جيل آخر كان يرفس كرة منفسة في الغبار وأخذ أماكنه خلف آلات الخياطة نفسها في مبنى الإدارة الإسمنتي، وكان الآن يلبس أحذية رياضية رخيصة.

وفي صف متعرج من أكياس الرمل، وبراميل النفط، وطوب البناء عند نقاط التفتيش العسكرية، وقف الناس فرداً فرداً، وهم مزدحمون ازدحاماً شديداً بعضهم على بعض إلى الدرجة التي لا تكاد أيديهم تستطيع فيها أن تنش الذباب. وكان أفراد العائلات يمسك أحدهم بالآخر، والأطفال الرضع صامتون. وظهر المسنون وكأنهم أكثر ارتياحاً، وربما كان ذلك لأنهم سبق أن عانوا هذا من قبل مرة بعد مرة. وما كدت أقول ذلك حتى شاهدت شيخاً مسناً ضعيفاً وهو يسقط في الزحام، وقد أمسكته وأبقته واقفاً صبية شابة. لم يكن يوجد له مكان ليجلس

على الحجارة ويستجمع نفسه، وأما التوسلات الموجهة إلى عسكري قريب، كان يفجر حب الشباب تحت خوذته، فلم تجد نفعاً، وما وصلت إلى شيء، بل نظر بعيداً، وتظاهر بدور المتفرج.

مجموعتي لآلة التصوير وأنا كنا في سيارة طويلة. وانتظر السائق، وهو فلسطيني لحظته، ثم قفز من السيارة وتحدث إلى ضابط إسرائيلي: وتم التلويح لنا بإشارة العبور.

وسألته: "ماذا قلت له؟"

"تظاهرت بأني إسرائيلي. عبريتي جيدة."

"كم مرة تفعل ذلك؟"

"كل يوم... أنا أسوق سيارة أجرة في القدس الغربية اليهودية، وأحمل ركاباً في الفنادق. لو ظن ركابي اليهود والأجانب أنني عربي، فلن يستأجروا سيارتي. وأنا أستمع لهم وهم يضحكون من (العبيد) أي نحن."

لقد مضت عشرة أيام منذ أن انسحب الجيش الإسرائيلي من رام الله بعد ثلاثة أسابيع من الاحتلال، ورام الله هي عاصمة الأمر الواقع للسلطة الفلسطينية. لقد رأيت أماكن كثيرة في أعقاب غزو، ولكن هذا كان مختلفاً. كان التدمير انتقائياً. كان أبعد ما يكون عن "تدمير البنية التحتية للإرهاب"، كان هدفه بوضوح هو تدمير البنية التحتية للمجتمع المنظم. وقد بدت الأعمال الفاضحة من التدمير العمدي العبثي للممتلكات وأعمال النكاية أعمالاً منهجية. وقد تبعت مسار دبابة كانت تنحرف من جانب إلى جانب من الطريق من أجل أن تسحق السيارات الصغيرة المملوكة للعائلات وتسحق أحواض الورد، ومن أجل أن تسحق ملاعب الأطفال، واحدا بعد الآخر، تاركة خلفها الأراجيح وأعمدة التسلق مشوهة.

في مدرسة عزيز شاهين للبنات، دخلت عشر دبابات إلى الملعب وسحقت الملعب، وبقيت هناك في الوقت الذي استخدم فيه القناصة الفصول العليا. وحين سمح للطفلات أن يَعُدْن، وَجَدْن كل شيء مدمراً حتى صار قمامة: مقاعدهن

وكراسيهن وكتبهن الدراسية، وسجادة، كما أشارت إحدى الفتيات، كانت في إطار زجاجي مهشم، وهي تقول: "السلام والعدالة في فلسطين." أما الأدوات الموسيقية التي لا يمكن استبدالها فقد سلبت غنائم حرب.

في وزارة التعليم، نسف الجنود الأبواب ليفتحوها وعاثوا فساداً في الحواسيب، وجردوها من السواقات، التي احتوت على بيانات عن الدورات العلمية، وعن الامتحانات، وقوائم التخريج. لم يتركوا شيئاً. وفي مكتب تسجيل الأراضي، سرقوا جميع السجلات أو دمروها، ومن جملتها وثائق ملكية يعود تاريخها إلى العهد العثماني. وفي إذاعة السلام والمحبة، التي تذيع إلى الشباب، قال المؤسس، معتز بسيسو: "لم يستغرقوا زمناً طويلاً. كان واضحاً أن لدى الجنود أوامر. لقد دمروا جهاز بثنا، وجميع أشرطتنا، والأقراص الصغيرة، والخلاطات: دمروا كل شيء. لقد دُمّرنا نهائياً إلا أن نحصل على المساعدة من الخارج."

وفي المركز الثقافي الفلسطيني قابلت المديرة، ليانا بدر، وهي روائية معروفة موضع تقدير، في الشارع، أمسح "دموع الغضب في عيوني". وكانت المسودة الأصلية لكتابها، ظلال الكلمات المنطوقة، ملقاة على أرض مكتبها متناثرة وممزقة، وقد أخذت السواقة من حاسوبها، وكانت تحتوي على روايتها، ومسرحياتها، وشعرها. وكل شيء آخر تقريباً كان قد سحق، أو دنس، ولم يبق أي كتاب سليماً بكل صفحاته، ولم يبق شريط أساسي واحد من مجموعة هي أفضل مجموعات السينما الفلسطينية.

ويوماً بعد يوم، قام الجنود الذين عسكروا هنا في أثناء الغزو بالتدمير المتعمد العابث للمركز كله: عمل دام طوال أعمار كثيرة وذلك مثل التاريخ الشفهي الضخم الزيتونات، وفيه وصفت أجيال من فلسطين التي عرفها القرويون كيف كانت شجرة الزيتون "مصدر النور، والنار، والغذاء، والشفاء" منذ الأزمنة القديمة وجهودهم لإنقاذ منحدرات التلال المزروعة ببساتين الزيتون من جرافات اليهود.

كان هناك مرحاضان في كل طابق من المركز الثقافي المكون من ثلاثة طوابق، ومع ذلك فقد جعل الجنود من أهدافهم أن يتبولوا وأن يتغوطوا في كل مكان غير المراحيض: على أرضيات المكاتب، وفي أصص الورد، لا بل في الأدراج التي تسحب من الطاولات. وعمد أحدهم إلى التغوط على آلة النسخ والتصوير. ووضعت أكياس بلاستيكية مليئة بالغائط وقوارير مياه معدنية مليئة بالبول في الأماكن التي توقع أكبر ضرر ممكن: على كتب مفتوحة، وعلى الأعمال الفنية، مثل المطرزات اليدوية.

في الطابق العلوي، في قسم الأطفال، "قسم من أجل تشجيع فن الأطفال" قام الجنود بالبول على كل شيء تقريباً. لقد دمروا عمداً وعبثاً أربعة جدران من رسوم الأطفال المرسومة بألوان الرسم المائية (الغواش) كان الجنود قد وجدوها ولوثوها بالغائط.

وقالت ليانا بدر: "هذا مشروع فني كامل، وكان يفترض أن يؤخذ في جولة إلى المدارس. أنظر إليه الآن، مغطى بالغائط والبول."

وفوق كل ذلك حفروا شمعداناً يرمز لإسرائيل، ونجمة داوود وكلمات: "أولاد الكلبات – أنتم حقراء. أنا ولدت لأقتل." وهناك مسجل فيديو ملقى على جانبه، وداخله ممزق، وإلى جانبه كوم من الأشرطة العارية باللغة العبرية.

أين كانت "البنية التحتية للإرهاب" التي قال الجنرال شارون أن جنوده كانوا يبحثون عنها؟ إن المركز الثقافي يقع في منطقة سكنية مبنية من البيوت الحجرية الأنيقة والمحاطة بالحدائق المكتظة بأشجار السرو وأشجار الفاكهة. وقد داست الدبابات أوالجرافات بشكل منهجي فوق صف من أشجار السرو. وقد أخبر الناس الذي يسكنون هنا المراسلة أميرة هاس بأنه كان هناك الكثير جداً من إطلاق النار حين احتل الجيش المركز لأول مرة إلى درجة ظن معها الناس أنه كانت هناك معارك بالبنادق مع الفلسطينيين. ولكن لم يظهر في المركز أي مسلح فلسطيني أبداً، وكان واضحاً أن الجنود كانوا يطلقون النار على أهداف مختارة عشوائياً

ليكون إطلاق النار "ترفيهاً ليلياً". وقد روت المراسلة: "في إحدى الليالي، استيقظ الجيران على صوت نباح: ورأوا أن أحدهم قد ربط مكبر صوت إلى شريط مسجل وكان يشغله بتسجيلات أصوات نباح كلاب. وفي غضون دقائق قليلة، كانت كلاب الحي كلها قد استيقظت والتحقت بالنباح والضجة. وفي الحال وصل النباح إلى أحياء مجاورة أبعد." وهرب الناس.[35]

وقالت ليانا بدر: "هذه هي حرب شارون المقدسة ضد الإرهاب. إنها ضد ذاكرة الشعب الفلسطيني وثقافته. إنهم يعرفون كم نقدر قيمة التعليم والثقافة. ففي فلسطين المحتلة، أسسنا ستين مكتبة للأطفال. قارن هذا العدد مع مصر التي تملك ما مجموعه خمساً وستين مكتبة. والآن، نحن لا نملك أي شيء لنقوم بتزويد تلك المكتبات به، ويجب علينا أن نبدأ من جديد مرة ثانية، وقد غادرونا مع هذا الإحساس من الإذلال، الجنود الشباب أكلوا، وتغوطوا على أعمالنا، وعلى ذاكرتنا، وعلى فننا. هل تستطيع أن تتخيل الشعور الذي يتركه عملهم هذا؟ إنه شعور بالاغتصاب.

"هذه الثقافة، وهذه الأعمال التي قام بها أطفالنا، هي وجودنا. لقد اغتصبنا، وطوال الوقت، يصيح مقترفو الجريمة بأنهم هم الضحايا، ويطلبون حزن العالم عليهم والصمت الدائم عنا في الوقت الذي يدمر فيه جيشهم القوي ثقافتنا وحياتنا."

لقد تركت عملية الدرع الدفاعي مئات القتلى والجرحى. وكثيرون منهم أطلقت عليهم النار حين كان منع التجول الذي فرضه الجيش "مرفوعاً". وفي مرات كثيرة، روت إذاعة الحكومة الإسرائيلية أن منع التجول قد رفع إلى الساعة السادسة من ذلك المساء، في نفس الوقت الذي يكون فيه الجنود في المدينة قد أعادوا فرض منع التجول في الظهيرة. وفي مرات أخرى، كانت سيارات جيب الجيش المزودة بمكبرات الصوت تسير عبر الشوارع في الساعة الثانية بعد الظهر وتطلب من الناس أن يعودوا إلى بيوتهم في غضون عشر دقائق، على الرغم من أن إعلاناً آخر يكون قد "رفع" منع التجول إلى الساعة الخامسة.[36]

لقد نجحت الحرب النفسية. فالناس لم يكونوا قادرين على أن يعرفوا إن كان يجب عليهم أن يخاطروا بالذهاب إلى المحلات التجارية، أو العمل، أو المدرسة أو الجامعة أو أن يمكثوا في البيت. وداد صفران، وهي كما وصفتها التقارير الصحفية "جدة في الخمسينيات" من عمرها، وكانت تعيش وحيدة وكان سمعها ثقيلاً. ويعتقد أنها سمعت أحد إعلانات منع التجول، ولكنها لم تسمع بالأمر الآخر الذي نقضه. قررت أن تمشي إلى المستشفى لتزيل جبيرة كانت على ساقها. وكانت لا تكاد تستطيع أن تعرج لتمشي بعصا المشي التي تحملها. أطلق عليها النار قناص إسرائيلي وأرداها قتيلة عند أبواب المستشفى.[37]

وقال الدكتور حامد مصري، وهو جراح أعصاب في مستشفى نابلس، إن اثنين من المرضى كان يمكن أن يعيشا لو سمح لسيارات الإسعاف بالوصول إليهما. وكان هذان المريضان هما عمر علي سلامة، وهو نجار، وصخر محمد، وهو خباز. وكان الخباز قد أصيب بطلق ناري أطلق عليه من خلال نافذة في بيته، وهناك نزف حتى الموت قبل أن يسمح لسيارة إسعاف أن تحمل جثمانه. ولم يكن ذلك الحادث أمراً غير مألوف.[38]

وفي بيت لحم، قابلت مسؤولاً فلسطينياً سابقاً في الأمم المتحدة، هو أمجد أبو لبن وهو الذي مات والده في المنزل من أسباب طبيعية، ونظراً إلى أن الإسرائيليين رفضوا السماح لأمجد أن يتخذ الترتيبات اللازمة لاستلام الجثمان، فقد أجبر على دفن والده في حديقته الصغيرة. وقال لي: "دعني أقص عليك ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا حاولنا أن نأخذه إلى المقبرة. في الثامن من آذار/مارس، كان أحد أصدقائي، وهو مدير لمستوصف طبي، يسوق سيارته للحصول على إمدادات طبية. لقد فعل كل شيء على الوجه الصحيح. لقد اتصل بضابط الارتباط الإسرائيلي. وكانت سيارته معروفة جيداً للجيش الإسرائيلي. لا بل إنه وصف لهم ما سيكون لابساً من الملابس في ذلك اليوم. وقالوا له إنه يستطيع أن يحصل على الإمدادات الطبية. لقد قتلوه برصاصة عالية السرعة في جبهته مباشرة."

يرى الفلسطينيون هذا العنف عنفاً مستمراً ويندر أن يُعترف به دولياً من ناحية قصده الإجرامي القاتل، ومن ناحية "الإرهاب" الذي يفرضه، ومن ناحية تأثيره غير المتكافئ على مجتمعهم، مقارنة بإسرائيل. ومنذ بداية الانتفاضة الثانية في أيلول/سبتمبرمن العام 2000، قتل ما يصل إلى 3.300 فلسطيني على يد القوات الإسرائيلية. وأكثر من نصفهم قتل بطريقة غير مشروعة كما تقول منظمة العفو الدولية. وهذا يعني أنهم لم يكونوا يشاركون في صدامات مسلحة أو في هجمات. وكان 650 منهم من الأطفال.[39] وحين كنت في رام الله، كان قصي أبوعيشة، وعمره اثنا عشر عاماً، يلعب في حديقته حين أطلق عليه النار جنديان إسرائيليان فأرديا قتيلاً. والموت من قتلٍ مثل هذا يحدث في كل يوم تقريباً.[40]

وقام الدكتور مصطفى البرغوثي، وهو مدير المركز الفلسطيني للسياسات الصحية في رام الله، بدراسة فترة ثمانية أشهر حتى شهر أيار/مايو من العام 2001. وقد كتب يقول: "لقد قتل أكثر من 500 فلسطيني، وجرح أكثر من 23.000 منهم. وثلث المصابين كانوا أطفالاً، وأكثر من 60٪ بالمائة منهم أطلقت عليهم النار وهم في بيوتهم، أو في مدارسهم، أو في أماكن عملهم."[41]

وفي العام 2003، أورد المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان تقريراً يفيد أن 408 من الأطفال قتلوا منذ بداية الانتفاضة الثانية في العام 2000. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذا الكلام، أطلق الجنود الإسرائيليون النار وقتلوا الطفلة إيمان الهمص، ابنة الثلاثة عشر عاماً، على الرغم من أنهم عرفوا أنها كانت بنتاً صغيرة، وكانت تلبس الزي الموحد للمدرسة. كان في جسدها سبع عشرة طلقة وفي رأسها ثلاث طلقات. إن المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان يصف الضحايا الذين يقتلون مثلها بأنهم دليل على سياسة إطلاق النار بقصد القتل وعلى استهداف الأطفال عن عمد.[42] وعلى الرغم من ذلك فإن سمعة الجيش الإسرائيلي في الوطن في إسرائيل، وفي صفوف الكثيرين من اليهود في الخارج، هي أنه "أكثر جيش في العالم إنسانية." حسب كلمات الحاخام الرئيسي البريطاني، جوناثان ساكس.[43]

وفي العام 2002، كشف كريس ماكغريل، مراسل الغارديان في القدس، أن الجيش الإسرائيلي قد "أطلق النار فقتل أو نسف" خمسين طفلاً تحت سن الثامنة في غزة وحدها. وقد حصلت، منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية، بيت سيليم، على تقرير عسكري داخلي يؤكد أن الجيش كان يمتلك سياسة للتغطية على جرائمه. وتقول المنظمة: "الرسالة التي يبثها مكتب القاضي المحامي العام [للجيش] رسالة واضحة، ... الجنود الذين يخرقون (تنظيمات فتح النار)، ولو أدى خرقهم لها إلى الموت، لن يتم استجوابهم ولن ترفع ضدهم دعوى."

وحين تحدى ماكغريل القائد الإسرائيلي بشأن قتل أربعة أطفال في غزة، قدم القائد إقراراً نادراً: "إن جنوده كانوا مخطئين إلى درجة ما أو أخرى في قتلهم لمعظم– ولكن ليس لكل– الأطفال." ولكنه مع ذلك، وفي نهاية المقابلة غير مسار الكلام، وقال: "أنا أتذكر المحرقة، نحن لدينا خيار، وهو أن نقاتل الإرهابيين أو أن نواجه الاحتراق في لهيب النار ثانية."

وسأل ماكغريل الناطق العسكري الذي كان يجلس في المقابلة إن كان يستطيع أن يذكر اسم القائد. فقال المتحدث: "لا، لقد أقر أن جنوده كانوا مسؤولين عن بعض أعمال القتل على الأقل. وفي هذا اليوم وهذا العصر، فإن ذلك يثير إمكانية جرائم الحرب، ليس هنا بل إذا سافر إلى الخارج فإن من الممكن أن يعتقل في وقت ما في المستقبل. بعض الناس قد يعتقدون أن هناك شيئاً ما خاطئاً هنا."[44]

وما كان لافتاً للنظر في هذه المقابلة ليس هو إقرار القائد، مهما يكن أمراً غير مألوف، بل هو استحضاره للمحرقة. وقد سألت مصطفى البرغوثي عن هذا الموضوع. فقال: "وما علاقتها بنا؟ إن معاداة السامية لا علاقة لها بهذه المنطقة. ففلسطين كانت دائماً مجتمعاً متسامحاً جداً. وطوال قرون، عاش الفلسطينيون، واليهود، والعرب، والمسيحيون معاً من دون قيام مشكلات كبيرة. إن هذه المشكلة المأزق التي نواجهها بدأت حين قررت الصهاينة أنهم يريدون دولة على حساب الفلسطينيين. لا علاقة للمحرقة بهذا الموضوع، لقد كانت ظاهرة أوروبية. والكلمة

التي لم تسمع أبداً تقريباً في إسرائيل هي (الظلم). فكأن الأمر هو أن المعاناة اليهودية يمكن أن تفرغ هذا وتمحوه. وهكذا فإن ما حدث هو أن هذا الخطاب نفسه عن الظلم قد انعكس.

"وهذا غريب جداً. فقد كنت في مؤتمر دولي حديثاً وكان المزاج السائد، وفي صفوف أناس لهم سمعة ليبرالية أيضاً، هو أن علينا، نحن الفلسطينيين، أن نعتذر للإسرائيليين عن كوننا محتلين من قبلهم. ويجب علينا أن نعتذر لأننا نجبر اليهود على اضطهادنا لمجرد أننا كنا موجودين هنا طوال آلاف من السنيين. يجب أن نعتذر للإسرائيليين الذين يريدون أن يظهروا متمدنين وديمقراطيين. ويبدو الأمر وكأن الحقيقة التاريخية لوجودنا قد أجبرتهم على اضطهادنا، وأجبرتهم على قتلنا: وطبعاً فإن قتل أطفالنا جزء من هذا كله. هم يريدوننا أن نعتذر عن كوننا أحياء، وإذا كان ذلك غلطة، فقد كانت إذن إرادة* الله. وبصراحة، لا أعتقد أن علينا أن نعتذر عن إرادة الله، وفي الطريقة نفسها لا أعتقد أن علينا أن نعاني بسبب جريمة أوروبية، هي المحرقة... الدم اليهودي ثمين، ولكن الدم الفلسطيني ثمين أيضاً. كلانا، نحن الشعبين، ثمين على قدم المساواة. إنني دائماً أقول كم أنا آسف لا على ألف وسبعمائة فلسطيني قتلوا في هذه الانتفاضة فقط بل على أربعمائة يهودي قتلوا فيها أيضاً. كلنا جميعاً، العرب واليهود، ضحايا هذا الاحتلال."

الإيمان بأن جيش الاحتلال هو أكثر جيش "إنسانية في العالم" هو إيمان لافت للنظر. فالتنظيمات المكتوبة التي تتظاهر باللياقة القانونية والإنسانية يقدمها إلى الصحافيين الناطقون العسكريون – بالطريقة نفسها التي يمتدح بها ضابط المعلومات في الجيش البريطاني قداسة مواثيق جنيف، "قواعد السلوك اللائق"، في الوقت الذي يتصرف فيه جنودهم بدرجة الوحشية التي يتطلبها دورهم الاستعماري.

* في النص "غلطة الله". وهذا كلام لا يليق بالذات الإلهية. لا بل إن وجود الفلسطينيين في فلسطين تشريف لهم من الله تعالى بالجهاد والرباط الدائم.(المترجم)

في القدس، تسلمت وثيقة من الجيش الإسرائيلي، "تنظيمات من أجل رد الفعل نحو المقيمين في الضفة الغربية الذين يصلون إلى حاجز طريق في طوارئ مستعجلة لحالة طبية." وهذه التعليمات، كما أكد لي متحدث باسم الجيش، كانت من نتاج حكم من المحكمة العليا في إسرائيل ويعرض الجنود أنفسهم للخطر إذا خالفوها. وتنص، في جزء منها على:

القاعدة، هي أن قائد حاجز الطريق سوف يمكّن أي شخص من المرور لأغراضِ تلقّي العناية الطبية، ولو لم يكن هذا الشخص يحمل التصريح اللازم، إذا كانت الحالة هي حالة طوارئ مستعجلة لحالة طبية... وفي الحالات، على سبيل المثال، التي تصل فيها المرأة بحالة مخاض [هكذا] عند حاجز الطريق... فإن قائد حاجز الطريق سوف ينظر في إمكانية مرافقة المقيم الموجود في حالة الطوارئ المستعجلة لحالة طبية بسيارة....

فاطمة وناصر عبد ربه يعيشان في قرية بالقرب من القدس وعلى القرية حاجز دائم على الطريق. ولا يستطيع المقيمون أن يغادروا أو أن يعودوا من دون إظهار تصاريحهم. وإقامتهم هذه شكل من أشكال الاعتقال في البيت، وهو أمر مألوف في الضفة الغربية وغزة. وحين يكون هناك منع تجول مفروض، فإنهم بكل بساطة لا يستطيعون أن يغادروا بيوتهم لأي سبب، وابنتهم أريج، وعمرها خمس سنوات، لا تستطيع أن تذهب إلى المدرسة، وهم لا يجرؤون على الخروج ولو إلى شرفة بيتهم. ويقوم العسكريون بقطع التيار الكهربائي من حين إلى آخر، ويتركون مع الشموع. جاء إلى هنا رئيس الأساقفة ديزموند توتو، وقد تأثر جداً بالتشابه مع أسوأ التطبيق الذي مارسته القوانين الماضية السيئة السمعة في جنوب إفريقية.

وقالت فاطمة، وهي تجلس في مطبخها، وأريج في حضنها: "نسمع أن قريتنا قد خصصت لتكون (منطقة "أ" و"ب"). وهذا يعني أنها ارض يهودية، ونحن لا نستطيع أن نستخدم الأرض بعد الآن، وهم يريدوننا أن نخرج. وقد علموا خطوطاً حمراء لمنعنا من استخدامها. هم يريدون أن يتملكها الأجانب، وقالوا لنا إن ذلك هو ما يخططون لفعله."

"كم المدة التي عشتم فيها هنا؟"

"كل حياتنا. نحن لسنا لاجئين. آبائي وأجدادي عاشوا هنا."

فاطمة وناصر كانا لمدة يحاولان أن يرزقا بطفل ثان وكانا يخضعان لمعالجة تتصل بالخصوبة. وفي أثناء سنتين في السجون الإسرائيلية، كما يقول ناصر أسيء له وعانى من مشكلات جنسية. وحين حملت فاطمة، احتفل ناصر بذلك بأن استدان ما يكفي ليستبدل صفائح التنك الموجودة على بيتهم ويضع بدلا عنها سقفاً من الأسمنت المسلح. وقد وصفت فاطمة لي ماذا حدث في ليلة 22 تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2001.

"كانت الساعة السابعة، وشعرت بآلام حادة من المخاض على الرغم من أن الحمل لم يكن قد تجاوز الشهور السبعة . وأريج كانت قد ولدت قبل شهرين من اكتمال الحمل، ولذلك كنا خائفين، وقد طلب زوجي من صديق له أن يأخذنا إلى مستشفى في بيت لحم في سيارة شاحنة يستخدمها لنقل الدجاج. وحين ساق السيارة إلى نقطة التفتيش، نظر الجنود إلى تصاريحنا وقالوا إننا كنا نحتاج إلى وثيقة أخرى. وقلت لهم إني كنت أنزف نزفاً شديداً سيئاً. وبدأنا جميعنا نناقش فدفعوا زوجي وضربوه بأخمص الرشاش. وحاول أن يهدئهم، ثم قررنا أن نقف جميعنا بهدوء، على أمل أن يظهر الجنود نحونا بعض العطف.

"لقد كنت أعرف في قلبي أن هذا سيحدث. فحين كنت على وشك ولادة أريج، نظر إلي جنود نقطة التفتيش وضحكوا وقالوا إنني كنت سمينة فقط... وقالوا: اذهبي إلى البيت!"

"وماذا فعلت في هذه الأزمة الثانية؟"

"عدنا إلى البيت وقررنا أن نحاول ثانية بعد أن يكون الجنود قد هدؤوا. وركبنا هذه المرة سيارة أجرة، على أمل أن يسمحوا لها بالمرور. ولكنهم مع ذلك رفضوا. وكان الوقت الآن شارف على الثانية صباحاً. كنت في المعقد الخلفي وفي حالة المخاض الأخير. ونظر أحد الجنود من النافذة وقلد أصوات أنيني. وكانت تلك

اللحظة هي اللحظة التي ولدت فيها طفلي، فقامت حماتي بقطع الحبل السري بحد شفرة. وسمعت صرخة ابني لأول مرة، وعلى الرغم من ذلك فقد فكرت آنئذ كم كنت سعيدة [حين حملت به] وكم كنت سعيدة لأنني كنت أعددت لوصول ابني وكنت أتطلع بأمل إلى سماع صوته."

والمولود ملفوف في معطفه، قال ناصر لسائق سيارة الأجرة أن يسوق السيارة عائداً، ثم وقفوا عند منعطف في الطريق. ومن هناك، انطلقوا مشياً على الأقدام باتجاه بيت لحم، عبر الحقول والتلال والسفوح الصخرية. كان الجو بارداً. وبعد ساعة، وصلوا إلى طريق فأشاروا لسيارة عابرة فحملتهم، وانطلقت بهم إلى مستشفى العائلة المقدسة، كان المولود أزرق وفي حالة حرجة. بعد سبع ساعات، مات من تعرضه للبرد القارس. سموه سلطاناً ودفنوه قرب بيتهم.[45]

كانت فاطمة تتحدث بالفصاحة الصريحة للناس العاديين الذين كافحوا وتعلموا كيف يعيشون نوعاً ما مع غضبهم. أما ناصر، فلم يرغب في إجراء مقابلة معه. وقالت فاطمة: "إنه غاضب جداً."

"لماذا تصرف الجنود بتلك الطريقة كما تعتقدين؟"

"لأن ذلك عادي. تلك هي الطريقة التي يعاملون بها كل الفلسطينيين. إنهم يفضلون أن يساعدوا كلباً أكثر من أن يساعدوا عربياً. ألست واعياً لذلك؟ كل واحد في كل بلد يعلم عنا كما يبدو. وكل واحد يراقب ولكن لا أحد يساعدنا."

ومن بيت فاطمة، الذي كان مبنياً على منحدر مائل شديد الانحدار، تستطيع أن ترى مستشفى هداسا الحديث في القدس الغربية اليهودية. لقد كانت فاطمة هي المرأة الثانية في قريتها التي تفقد مولودها بعد أن يكون الجنود قد أوقفوها عند نقطة التفتيش. وهناك امرأة أخرى في قرية مجاورة فقدت مولودها في ظروف مشابهة. وقد سجل معهد فلسطيني للسياسات الصحية في مسح له طوال سنتين وفيات ثلاثة وسبعين مولوداً عند "نقاط تفتيش عسكرية، وحواجز، وخنادق،"

ووجد أن العديدات من النساء اللواتي يواجهن صعوبات في الولادة لم يكن لديهن فرصة للولادة إلا في البيت من دون مساعدة طبية.[46]

إن وجود سيارة إسعاف لا يعني أي اختلاف. وفي أثناء فترة مدتها ثمانية عشر شهراً، راقبت المنظمة الإسرائيلية أطباء من أجل حقوق الإنسان الفلسطينيين الذين يبحثون عن العناية الطبية المستعجلة، مثل النساء في المخاض والمرضى الذين يحتاجون إلى غسيل الكلى وإلى علاج السرطان. فوجدت أن 221 حالة من حالات سيارات الإسعاف قد ردت على أعقابها عند نقاط التفتيش، وهو ما أدى إلى تسع وعشرين حالة وفاة.[47]

ويقول الجيش الإسرائيلي إن سيارات إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني تستخدم لنقل المتفجرات. وفي إسرائيل، وجدت أنا أن الناس كانوا ينظرون إلى هذا الأمر وكأنه مسلم به. وفي الحقيقة، كان هناك اتهام واحد بأن قنبلة وجدت في سيارة إسعاف، وأن الهلال الأحمر قد نفى بشدة صحة الحادثة المروية، ووصفها بأنها مؤامرة لنزع الثقة منه. وتقول منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية بيت سيليم إنه "على الرغم من الطلبات المتكررة من منظمات حقوق الإنسان ومن آخرين غيرها فإن المتحدث [العسكري الإسرائيلي] لم يقدم أبداً أي دليل يدعم مزاعمه بأن الفلسطينيين يستخدمون سيارات الإسعاف استخداماً سلبيا... ولكن التوثيق لم يُكشف قطعياً."[48]

ومن جنيف، أصدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وهي التي تبقى عادة فوق مثل هذه المناقشة، بياناً فوق العادة. تقول اللجنة الدولية للصليب الأحمر:

هناك حملة مستمرة من تزييف المعلومات وتشويه السمعة ضد جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني. وقد عبرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مناسبات عديدة لأعضاء الحكومة الإسرائيلية وقوى الدفاع عن مخاوفها الخطيرة حول الاتهامات المتكررة ضد جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني التي يجري توصيلها من خلال وسائل الإعلام. وعلى الرغم من الطلبات العديدة من اللجنة الدولية من الصليب

الأحمر، فإن [العسكريين الإسرائيليين] لم يقدموا أبداً أي دليل محسوس يدل ضمناً على مشاركة أعضاء جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في أعمال عنف ضد الإسرائيليين حين يقومون بتنفيذ مهماتهم... وتصل الاتهامات إلى حد القيام بحملة دعاية منهجية تهدد كل المهمة الإنسانية لأنها تلقي بظلال من الشك وعدم الثقة على أولئك الذين يسعون إلى تقديم المساعدة التي تدعو إليها الحاجة الماسة بشكل كبير جداً.[49]

في اليوم الذي زرت فيه فاطمة، رتبت أن أزور سالم شوامرة في مقهى بالقرب من بيته في عناتا، وهي ضاحية خارج القدس. وقد قيل لي: "قصته فقط تعبر عما لا يستطيع الآخرون أن يتخيلوه." سالم يملك بطاقة هوية إسرائيلية. وهذا ما يبين أنه ولد في القدس وهو يعني نظرياً أنه كان يمتلك بعض الحماية من الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاحتلال. في العام 1994، قدّم طلباً للحصول على ترخيص تخطيط ليتم تصنيف أرضه أرضاً مخصصة للزراعة. ولهذا الغرض، قيل له، إن عليه أن يدفع 25.000 دولار، وهي ضريبة تنطبق على الفلسطينيين فقط. وطوال أربع سنوات، رفضوا إعطاءه الترخيص ثلاث مرات، وقيل له في مرتين إن هناك توقيعين ناقصين على الاستمارة ولكن أياً من التوقيعين لم يحدد له.

قال لي: "في 9 تموز/يوليو، من العام 1998، كنا نتناول غداءنا، أنا وأسرتي، حين انطلق صراخ مفاجئ، وكان البيت مطوقاً بالجنود. قال واحد منهم: إنه ليس بيتك الآن، إنه بيتنا. لديكم خمس عشرة دقيقة لتخرجوا." وحين تصديت لهم وتحديت هذا، اعتقلوني، وبدؤوا يهشمون النوافذ ويلقون قنابل غاز مسيل للدموع في الداخل، وهناك كانت زوجتي وأطفالي. زوجتي توفيت، وأطفالي كانوا بحالة مروعة. وصل جيف هالبر، عالم الأناسة (الأنثروبولوجيا) الإسرائيلي الرائع الذي يقود اللجنة الإسرائيلية ضد هدم البيوت، ورمى نفسه أمام الجرافات. ولكن الجنود ضربوا كل الناس، وأحد الأولاد فقد كليته، وسوّي بيتي بالأرض. سبع سنوات من العمل في المملكة العربية السعودية، التي ذهبت إليها لأدخر لبناء البيت، ذهبت سدى.

"نقلت أسرتي إلى خيمة في أرض الدار الخلفية، ثم راقبت حدوث المعجزة. الفلسطينيون وجماعة جيف هالبر، والعرب، واليهود معاً، أعادوا بناء بيتي في ثلاثة وعشرين يوماً. مئات من الناس جاؤوا للمساعدة من كل أنحاء إسرائيل. وانتهى بناء البيت في 3 آب/أغسطس. وفي اليوم التالي تماماً، استيقظنا من النوم، زوجتي وأنا، في الساعة الرابعة صباحاً والرشاشات مصوبة إلى وجوهنا. وأمرنا أن نخرج إلى الشارع، وهناك راقبنا بيتنا يدمر للمرة الثانية. لقد دمروا كل شيء حتى الأشجار التي زرعناها. لا بل لقد أخذوا الخيمة التي كنا نعيش تحتها.

"ومرة أخرى، ذهبت إلى الإدارة المدنية وهناك قالوا لي إن البيت ما كان ليهدم لو أنني كنت قد حصلت على التوقيعين الناقصين ولكنهما توقيعا من؟ فطوال شهرين، حاول محام أن يجد لي من هما، من دون أي حظ في النجاح. وهكذا، نعم، أعدنا بناء بيتي مرة أخرى. لقد انتهى في 3 نيسان/ابريل من العام 2001. وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، جاء الجنود مرة أخرى ودمروا البيت مرة أخرى!

"عدت إلى الإدارة المدنية، واستمروا في تحريك خط المنطقة". هل كنت أنا في المنطقة التي كانت مخصصة لليهود فقط؟ لم أكن متأكداً أبداً، لأني لم أُحَط علماً بذلك أبداً. نعم، أعدنا البناء مرة أخرى، وجاء الجنود مرة أخرى، وفي هذه المرة جاؤوا في دبابة. لم أستطع أن أوقف ابنتي ذات السنوات العشر من عمرها عن الركض أمام الدبابة، ويقول الأطباء إن الصدمة لجملتها العصبية كانت بالغة إلى درجة جعلتها الآن تصاب بالعمى، ويزداد ذلك قليلاً قليلاً كل يوم. جميع أطفالي لا ينامون من دون أن يبللوا فراشهم ويصرخوا من الكوابيس. هذا يحدث في كل ليلة. ماذا يعني هذا بالنسبة إلي؟ إنه يعني أنني، بصفتي والدهم، لا أستطيع أن أحميهم، أنني لا حول لي ولا قوة. الآن يجب علي أن أتوقف."

وحين استطاع صديق لي أخيراً أن يحدد الإدارة التي تعاملت مع قضية سالم، سأل مسؤولاً عن السبب الذي من أجله حدث هذا الهدم. هل كان سالم "إرهابياً" مشتبهاً به؟

جاء الجواب: "لا، لم يحضر إلينا من أجل ترخيص التخطيط."

"ولكنه جاء ثلاث مرات."

"سوف ننظر في الأمر."

ولم نسمع أي شيء بعد ذلك، ولكننا حصلنا على التأكيد غير الرسمي أن بيت سالم لن يدمر للمرة الرابعة. ولكن هذا، طبعاً، لم يكن ضماناً. وحين سمعت عنه لآخر مرة، كان الجنود قد بدؤوا في جرف البيوت القائمة في جواره بالجرافات. ومنذ أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية وغزة، دمرت ما يقدر بأحد عشر ألف بيت فلسطيني. وهذه "إستراتيجية" تعلمتها إسرائيل من البريطانيين، الذين دمروا مئات البيوت، في عقاب جماعي على مقاومة حكمهم في فلسطين الانتداب.[50]

وقد كتبت أميرة هاس في كتابها شرب البحر في غزة، تقول: "إن إسرائيل مثلها مثل كل احتلال قبلها – وعلى الرغم من أنها قد سيطرت على الأراضي منذ العام 1967- مازالت لم تتعلم بعد أن المقاومة والإرهاب كانا ردَّي فعل على الاحتلال نفسه وعلى شكل الإرهاب المتجسد بالحكم الأجنبي."[51] إن معظم الفلسطينيين يوافقون على ذلك، على الرغم من أنهم ربما لا يتفقون مع القول إن إسرائيل "مازالت لم تتعلم بعد" أن إرهابها يستدعي الإرهاب. وقد يقول الفلسطينيون، إن إسرائيل تعمل عمداً على دفع "دائرة" الإرهاب وتستغلها استغلالاً خبيثاً، وإن التفجير الانتحاري الفلسطيني لم يكن أكثر من نتيجة لهذا.

وقد عالج إدوارد سعيد هذا الموضوع في مقالته "العقوبة بالتفصيل":

التفجير الانتحاري يستحق اللوم، ولكنه نتيجة مباشرة، وهو في رأيي نتيجة مبرمجة عن وعي لسنوات من الإساءة، والعجز عن الدفاع عن النفس واليأس. إن علاقة التفجير الانتحاري بالميل العربي أو الإسلامي إلى العنف ضئيلة مثل ضآلة علاقة الرجل القادم من القمر به. إن [آرييل] شارون... يفعل كل شيء في قدرته ليخلق الظروف المناسبة من أجل [الإرهاب]. ولكن العنف الفلسطيني، مع كل

رعبه، ردُّ فعلٍ من شعبٍ يائسٍ ومضطهدٍ اضطهاداً مرعباً، وقد جُرّد من سياقه ومن المعاناة المروعة التي ينبع منها.[52]

الهجمات الانتحارية ظاهرة حديثة [مثلما هي في العراق، فهي لم تكن معروفة هناك قبل الغزو الأنجلو – أمريكي]. في الانتفاضة الأولى (1987–93) لم يكن هناك أي هجمات انتحارية. لقد دافع الفلسطينيون عن أنفسهم ضد الرصاص، والدبابات، والطائرات العمودية المسلحة بأسلحة صغيرة، وكان معظم الدفاع بالمقلاع ومحذفة الحجارة. وأول متفجر فلسطيني انتحاري ضرب في المدينة الإسرائيلية العفولة في 6 نيسان/إبريل في العام 1994. وكان هذا التفجير رد فعل مباشر على القتل الجماعي الذي قام به المتعصب الصهيوني باروخ غولدشتاين لتسعة وعشرين مصلياً مسلماً في(كهف الآباء) الحرم الإبراهيمي في الخليل في 25 شباط/فبراير من ذلك العام. "وباروخ لم يكن مريضاً عقلياً" كما قالت أرملته مريام للصحيفة الإسرائيلية يديعوت أحرونوت. "كان يعرف ما أقدم على فعله. لقد خطط لما فعله لكي يوقف محادثات السلام."[53]

وهكذا بدأت "دائرة العنف". وقد روت بديعوت أحرونوت أن حماس "وزعت تعميماً في الأراضي [المحتلة] حذرت فيه من خمسة أعمال كبيرة انتقاماً للمجزرة التي وقعت في الحرم الإبراهيمي."[54] وتلا ذلك الهجوم الانتحاري في العفولة.

وكتب الصحافي الفلسطيني سعيد غزالي: "[التفجيرات الانتحارية] فظيعة، وغير مبررة، مثل كل الهجمات القاتلة على المدنيين الأبرياء، هي ظاهرة غريبة ومدعاة للصدمة، لا لإسرائيل فقط، بل للفلسطينيين كذلك... لقد عاش الفلسطينيون طوال أكثر من أربعة وخمسين عاماً وهم ينتظرون، ويشتكون، ويستجدون، ويناشدون ويقاومون"، لقد وجدوا سلاحاً أقام نوعاً من التساوي في الخوف.[55].ووضعوا في يد إسرائيل أيضاً سلاحاً للدعاية لا يشبهه أي سلاح آخر، فالمتحدثون الإسرائيليون يكررون بلا توقف، أن مثل هذا العمل البربري، برهن على أن الفلسطينيين كانوا إرهابيين بالفطرة.

وحين تسلقت الدرج المصنوع من طوب البناء، ماراً فوق الأسلاك العارية والأطفال الفضوليين، واجهني ملصق عملاق لآخر متفجرة منتحرة، كنت قد رتبت أن أقابل أسرتها في مخيم الأمعري المغبر المكتظ للاجئين الفلسطينيين بالقرب من رام الله. ولفظة "متفجرة منتحرة" هي لفظة غير معترف بها هنا، فهم لا يعرفون إلا كلمة "شهيدة". وغنى الأطفال: "وفاء، وفاء" وهم يشيرون إلى الصورة البطولية في الملصق. وقفت إلى جانبه فتاة صغيرة، وقد وضعت يدها على قلبها. وقالت: "أنا!" لقد كان لدى الفلسطينيين أول امرأة شهيدة.

امرأة شابة جذابة في الثامنة والعشرين. كانت وفاء إدريس إلهاماً لأسرتها ولصديقاتها. كانت حريصة كرست جهدها لمساعدة الناس. وبصفتها متطوعة لعمل "مسعفة أولية" مع الهلال الأحمر، كانت حاملة نقالات في الخط الأمامي للمقاومة الفلسطينية. حين جاءت الدبابات الإسرائيلية، وواجهها الشباب والأولاد الصغار بالحجارة، وكانت وفاء هناك، تشهد "الأشياء المروعة" كما قال لي طبيب نفسي سريري كان قد قدم لها المشورة وللآخرين من موظفي الهلال الأحمر. "إن الأثر النفسي الذي يقع على هؤلاء الشباب الذين يقومون بإخلاء الموتى والجرحى يمكن أن يكون أثراً عميقاً. إنهم يحملون جثثاً هي حرفياً مقطعة إرباً إرباً."[56]

أصيبت وفاء مرتين بطلقات نارية بساقها من الطلقات المغطاة بالبلاستيك. وكانت تعمل وهي مصابة، وصارت عاملة نشيطة وغاضبة أكثر فأكثر. وفي يوم الأحد، في 28 من شهر كانون الثاني/يناير من العام 2002، أسرعت إلى العمل. وأخبرت أسرتها بأنها ستراهم في ذلك المساء. وبدلاً من ذلك، حملت 10 كيلو غرام من المتفجرات في جعبة، وحزمتها على ظهرها وذهبت إلى القدس الغربية اليهودية. واندفعت مسرعة إلى حشد وقت الغداء في شارع يافا، وأشعلت القنبلة، فقتلت نفسها وأحد الواقفين وجرحت مائة آخرين.

وقال لي أخوها الكبير خليل "كانت هذه مفاجأة لنا جميعاً. لا نستطيع أن نفهم أنها فعلت هذا. كانت تحب الحياة حباً جماً، وكانت تهتم بأصغر المخلوقات،

مثل العصافير الصغيرة، وكانت هي التي تقوم بتهدئتي في كل مرة كنا نختلف فيها، كانت صانعة سلام. طبعاً، نحن كنا نعرف ما يحدث لها. لقد كانت تعمل تحت النار طوال وقت طويل، وقد أصيبت بالطلقات مرتين وضربت من الجنود حين جاءت لتساعد المصابين. كانت تراقب معدة شخص وقد تطايرت خارج بطنه. كانت تراقب أناساً يموتون، وكان يحتمل أن يتم إنقاذهم لو أن الإسرائيليين كانوا قد سمحوا لسيارة الإسعاف التي تعمل فيها أن تمر عبر نقاط التفتيش، وكانت تخبرنا أن سيارات الإسعاف كانت تجبر على الانتظار في صف من السيارات لمدة ساعة أو ساعتين في الوقت الذي ينزف فيه المريض حتى الموت. وكانت منزعجة انزعاجاً عميقاً بشأن النساء الحوامل وفقدانهن لمواليدهن عند نقاط التفتيش، وبشأن موت الأمهات أيضاً. وبسبب خبرتها لكل ذلك، فأنا أستطيع أن أؤكد لك أن أختي لم تكن لتذهب إلى الموت من أجل أي شيء تافه."

وسألته: "هل كنت ستحاول أن توقفها لو عرفت ما كانت تخطط له؟"

"إنني أبلغ الثانية والثلاثين من العمر وقد قضيت عشر سنوات من عمري في سجون إسرائيلية لأنني دافعت عن وطني. ولذلك فالأمر ليس عدم امتلاكي المشاعر نحو شعبي – أنا أريد أن أضحي بنفسي من أجل فلسطين – ولكن الجواب هو: نعم، كنت سأحاول أن أمنعها بأي طريقة أستطيعها، لأنني لا استطيع أن أدع مثل هذه الشخصية العزيزة أن تفعل ذلك، لقد كانت أختي الوحيدة وأنا مفعم بالحزن لأنها غادرت البيت ولم تعد."

خليل ووفاء ولدا في مخيم للاجئين. ومات والدهما حين كانا طفلين، وكانت ساق أمهما مشوهة من أثر طلقة إسرائيلية. وحين كنا نتحدث (مستندين على صورة جدارية لجزيرة مدارية، مثل مكان في الأحلام بعيد عن المخيم)، كانت ابنة خليل ميلانا ذات السنوات الأربع تلعب عند قدميه، وكانت تضع على شعرها زهرة دوار الشمس.

"بصفتك عاملاً نشيطاً، كيف تتعامل مع موت أختك؟"

"إذا كنت تسأل: هل أريد أن أثأر لموتها فالجواب بصراحة، نعم. ولكني لن أفعل، لأن هدفنا ليس هو أن نقتل الإسرائيليين. إنه تأسيس دولة فلسطينية وأن نعيش في سلام مع الإسرائيليين وأن نكون أصدقاء وأن يزور أحدنا الآخر. وأتحدث عن نفسي شخصياً، فأنا لا أريد أبداً إسرائيلياً آخر يضغط على زناد بندقيته ضدي، وأنا لا أريد أن أضغط على زناد بندقية ضد أي واحد، مرة أخرى أبداً.

"أختي وفاء كانت تنتمي إلى حركة التحرير الفلسطينية (فتح) وهي الحركة نفسها التي كانت منغمسة بالعملية السلمية مع الإسرائيليين، ومن جملة ذلك اتفاقية أوسلو التي كان يفترض أن تقود إلى دولة فلسطينية في غضون خمسة أعوام، ولم يحدث ذلك. فليس لدى شارون ومتطرفيه أي اهتمام بهذا: أي بالسلام الحقيقي. ألا تعرف أننا الشعب الوحيد في العالم الذي تقول الأمم المتحدة إننا نملك الحق في الاستقلال، ونحن غير مستقلين؟ نحن فريدون بأسوأ طريقة ممكنة. من فضلك، لا أريد أن أكون فريداً. ولا أريد أن تكون ذكرى وفاء فريدة."

وقلت له: "إن ما صدم الناس في البلاد الأخرى هو أن التفجيرات الانتحارية ليست موجهة إلى شارون وأولئك الذين هم من أمثاله، بل هي موجهة في معظمها إلى المدنيين، إلى أناس من أمثال الذين قتلتهم أختك. ماذا تقول عن ذلك؟"

"أود أن أقول أنا آسف عن كل القتلى، من الإسرائيليين ومن الفلسطينيين. ولكن حين أكون جالساً في بيتي مع أسرتي ويجري قصف بيتي بالقنابل، وأبحث في الحطام عن أحبابي – وهذا يحدث في كل مخيم – حينئذ سيكون لي رد فعل لأنني أعاني، سوف أريد للإسرائيليين أن يعانوا كذلك. الفلسطينيون ليسوا أول من يحس مثل هذا الإحساس، هل هم كذلك؟ إن وسائل الإعلام الأوروبية سوف تسمع دائماً من الإسرائيليين عن مدنييهم الذين يقتلون، ولكنها لن ترى أو لن تريد أن ترى العنف اليومي الساحق من الإسرائيليين ضدنا.

"بمجرد بنادق، نحن نواجه الطائرات العمودية الأمريكية أباتشي والقاذفات الأمريكية اف – 16. لماذا؟ لأننا وحدنا في المواجهة. إن هيئة من الأمم المتحدة

لاكتشاف الحقائق تريد أن تحضر هنا لفحص المجازر التي أمر بها شارون، ولكن الولايات المتحدة تتدخل وتمنعها نيابة عن إسرائيل. ولذلك فماذا نستطيع أن نفعل؟ كيف لا نحس بأننا معزولون عزلاً كاملاً؟ كيف لا نستطيع أن نشعر باليأس؟ كيف لا نستطيع أن نرد بالضرب؟ ولكن بم نضرب في ردنا؟ إن كل ما نمتلكه هو أجسادنا."

"ماذا تعني الحياة لك الآن؟"

"سأكون صريحاً معك: الحياة لا معنى لها عندي. أنا أعتقد أنني لا أمتلك مشاعر بعد الآن، وأعرف أن بيتي سيضرب في أي يوم بالصواريخ من الجو. لا بل حين أقوم بسوق سيارتي، أبحث في السماء عن أباتشي [طائرة عمودية مسلحة]. لقد صرت شهيداً حياً."

والشاعر الفلسطيني محمود درويش، وهو معارض لكل أنواع الهجمات على المدنيين، وهو الصوت الدؤوب المنادي بالتعايش الإسرائيلي – الفلسطيني، كتب يقول: "علينا أن نفهم – لا أن نبرر – ما الذي يعطي البروز لهذه المأساة... الشعب الفلسطيني يحب للحياة. إذا أعطيناهم الأمل – حلاً سياسياً – فسوف يتوقفون عن قتل أنفسهم."[57] والسطور الآتية مقتبسة من قصيدته "الشهيد":

أنا أحب الحياة

على الأرض، بين أشجار الصنوبر وأشجار التين

ولكنني لا أستطيع الوصول إليها، لذلك فأنا أصوب نحو الهدف

بآخر شيء أمتلكه.

وبالنسبة إلى رامي الهانان، وهو مصمم رسام إسرائيلي، فإن تضحية الفلسطيني "بآخر شيء أمتلكه" تسببت في موت ابنته ذات الأربعة عشر عاماً من العمر، سمادار. هناك شريط مصور في البيت لسمادار من الصعب مشاهدته. إنها تعزف على بيانو الأسرة، وهي تلقي برأسها إلى الخلف وتضحك. لها شعر طويل،

كانت قد قصته قبل أن تموت بشهرين. "لقد كانت تلك طريقتها في إصدار بيان استقلالها"، كما أخبرني رامي وهو يبتسم. "كان من عادة إخوتها أن يمازحوها لأنها كانت طالبة جيدة للغاية. ولكنها كانت تعرف ما تريد. كانت تريد أن تكون طبيبة، وكانت تحب أن ترقص."[58]

في أصيل يوم 4 أيلول/سبتمبر من العام 1997، كان على سمادار وأعز صديقة لها، وهي سيفاني، أن تقوما بتقديم أداء تجريبي للقبول في مدرسة للرقص. وقد تحاورت سمادار في ذلك الصباح مع أمها، نوريت، التي كانت قلقة من ذهابها إلى مركز القدس لشراء الكتب التي كانت تحتاج إليها في المدرسة. وقالت نوريت: "كنت قلقة من الزيادة في التفجيرات الانتحارية، ولكنني لم أرغب في الشجار، ولذلك تركتها تذهب."

أما رامي فكان في سيارته حين فتح المذياع في الساعة الثالثة ليستمع إلى الأخبار وسمع التقارير عن التفجير الانتحاري في منطقة التسوق في بن يهودا. ثلاثة فلسطينيين مشوا في صفوف الجمهور وحولوا أنفسهم إلى قنابل بشرية. كان هناك مئتا مصاب تقريباً، والعديد من القتلى. وفي غضون دقائق، رن هاتف رامي الجوال. كانت نوريت تبكي. لقد تلقت مكالمة من أحد أصدقاء ابنهم، الذي كان قد رأى سمادار وهي تشق طريقها إلى سوق بن يهودا قبل وقت قليل من انفجار القنابل. وطوال ساعات، جال رامي ونوريت على المستشفيات، يبحثان عنها. "وأخيراً"، كما قال "اقترح شرطي بلطف أن نذهب إلى مشهد التفجير، وهناك وجهنا إلى محفظة جثث الموتى."[59]

كان "نزولهم إلى الظلام" أيضاً، كما يصفه رامي، بداية حملة ملهمة من أجل السلام. لم أقابل أحداً مثل رامي، والمقابلة التي أجريتها معه في غرفة الجلوس المشمسة في بيته في القدس أثرت في تأثيراً عميقاً. وأحياناً، تبدو حلول المشكلات السياسية الصعبة المراس في ظاهرها أقرب في متناول اليد حين يكون هناك أمثال رامي الهانان منهمكاً فيها، ويقول الذي لا يقال.

قال لي: "إن من المؤلم أن نعترف، ولكنها في الواقع بسيطة تماماً. ليس هناك فرق أخلاقي أساسي بين الجندي الواقف عند نقطة التفتيش يمنع امرأة تحمل بطفل من المرور عبر الحاجز، ويتسبب لها بذلك أن تفقد طفلها، وبين الرجل الذي قتل ابنتي. ومثلما كانت ابنتي مجرد ضحية [للاحتلال] كان هو أيضاً ضحية."

وعلى الرف خلفه كانت هناك صورة لابنته سمادار في الخامسة من عمرها. وهي تمسك لافتة. تقول: "أوقفوا الاحتلال." ويسميها رامي "طفلة سلام." وقد نشأ والداها على الإيمان بأن إنشاء إسرائيل لتكون وطناً قومياً يهودياً كان عملاً من أجل حفظ الذات. فوالد رامي بقي على قيد الحياة بعد أوشفيتز. وأجداده مع ست من عماته وأعمامه هلكوا في المحرقة. ووالد نوريت، ماتي بيليد وهو جنرال، كان بطلاً من أبطال حرب العام 1948. ويصفه رامي بأنه كان "واحداً من الرواد الحقيقيين لصنع السلام مع الفلسطينيين." وكان من بين الإسرائيليين الأوائل الذين زاروا ياسر عرفات في منفاه في تونس. ونوريت نفسها منحت جائزة السلام من البرلمان الأوروبي.

ويعيد رامي "وعيه للحقيقة التي لا نجرؤ على التحدث عنها" إلى الوقت الذي كان فيه مجنداً شاباً في الجيش. ويقول كانت حرب العام 1967 قد وقعت منذ وقت قليل، ولم تكن الحرب هي "التدخل الإلهي" كما صُوِّرت في إسرائيل، وخصوصاً في صفوف "المستوطنين" الذين بنوا قلاعهم غير المشروعة فوق الأراضي المحتلة حديثاً. ويصفها بأنها "بداية السرطان في قلب إسرائيل." وقال إنه أدرك لاحقاً، وهو جندي في حرب العام 1973 حرب يوم الغفران (كيبور)، "أن الدم موجود على يدي، أيضاً."

ورامي ونوريت هما من بين المؤسسين لحلقة الآباء أو العائلات المفجوعة من أجل السلام، والتي تجمع معاً العائلات الإسرائيلية والفلسطينية التي فقدت أحبابها. وهي تضم عائلات المفجرين الانتحاريين. وهم معاً ينظمون حملات تثقيفية ويشكلون جماعة ضغط على السياسيين للبدء بمفاوضات جدية. وحين قابلت رامي، كانوا قد وضعوا قبل قليل ألف كفن خارج مبنى الأمم المتحدة في نيويورك، وكل واحد منها

ملفوف بعلم إسرائيلي أو فلسطيني. وقال "ليس هدفنا أن ننسى الماضي أو أن نغفره، بل هو أن نجد طريقة ما للعيش معاً."

وسألته: "كيف تميز مشاعر الغضب، التي لابد أنك شعرت بها بصفتك والداً، حين فقدت ابنتك عن مشاعر إرادتك في التواصل؟"

"بسيط جداً. فأنا إنسان. ولست حيواناً. لقد فقدت طفلتي، ولكنني لم أفقد عقلي. التفكير والتصرف بناء على الشجاعة فقط يزيد من دائرة الدم التي لا نهاية لها. عليك أن تفكر: شعبانا هنا ليبقيا، لن يتبخر أحد منهما. يجب علينا أن نجد حلاً وسطاً بطريقة ما. وأنت تعمل ذلك بالعقل، لا بالشجاعة."

"هل قمت بالاتصال مع والدي المتفجر الانتحاري الذي قتل سمادار؟"

"جرت محاولة واحدة لذلك. شخص ما أراد أن يخرج فيلماً حول ذلك، ولكنني لم أكن مهتماً. أنا لست مجنوناً، أنا لا أنسى، وأنا لا أغفر. الشخص الذي يقتل الفتيات الصغيرات هو مجرم ويجب أن يعاقب، وأما أن أكون على اتصال شخصي مع أولئك الذين أساؤوا لي، فليست هي المسألة الجوهرية. وهكذا فأنت ترى، أن علي أحياناً أن أقاتل نفسي لأفعل ما أقوم بفعله الآن. ولكنني متأكد أن ما أفعله الآن هو الصحيح. إنني أفهم بالتأكيد أن المتفجر الانتحاري كان ضحية مثلما كانت ابنتي ضحية. من ذلك الأمر، أنا على يقين."

"هل قمت بالاتصال مع والدي المفجرين الانتحاريين الآخرين؟"

"نعم. اتصالات حارة جداً ومشجعة."

"ما هو المقصد من ذلك؟"

"المقصد هو صنع السلام، وليس طرح الأسئلة. وكما قلت، فأنا أيضاً أحمل دماء على يدي. كنت جندياً في الجيش الإسرائيلي... فإذا كنت تحفر التاريخ الشخصي لكل فرد ولكل واحد منا، فلن تصنع سلاماً، سوف تصنع المزيد من المناقشات والمزيد من التلاوم. غداً، أنا سأذهب إلى الخليل لمقابلة عائلات فلسطينية مفجوعة. إنهم برهان حي على رغبة الجانب الآخر في صنع السلام معنا."

"أليس المزاج العام في إسرائيل مختلفاً نوعاً ما؟"

"لي صديق يقول إن ما أفعله هو مثل نقل الماء من المحيط بملعقة. ونحن [في حلقة الآباء] قليلون جداً، هذا صحيح، والذين يقودون العالم أناس أغبياء جداً: هذا أيضاً صحيح. وأنا أتحدث عن الرئيس الأمريكي وعن رئيس وزرائنا. إنك حين تأخذ كلمة (إرهاب) وتبني كل شيء حولها، كما يفعلان، فأنت لا تصنع إلا المزيد من البؤس فقط، والمزيد من الحرب، والمزيد من الإصابات، والمزيد من المتفجرين الانتحاريين، والمزيد من الانتقام، والمزيد من العقوبة. وإلى أين يقود ذلك؟ لا يقود إلى أي مكان. إن مهمتنا هي أن نشير إلى الواضح. جورج واشنطون كان إرهابياً، جومو كينياتا كان إرهابياً، نلسون مانديلا كان إرهابياً. ليس للإرهاب معنى إلا لأولئك الذين هم ضعفاء والذين لا يملكون أي خيار آخر. ولا وسائل أخرى."

"ما الذي يجب فعله لإنهاء هذه المعاناة؟"

"يجب أن نبدأ بمحاربة الجهل. أنا أذهب إلى المدارس وألقي محاضرات. وأنا أخبر الأطفال كيف بدأ النزاع بالطلب إليهم أن يتخيلوا بيتاً فيه عشر غرف يعيش فيه محمد وعائلته في سلام. ثم، في ليلة عاصفة، كانت هناك دقات على الباب، وفي الخارج وقف موسى وعائلته. إنهم مرضى، ومنهكون، ومكسورون. وهو يقول: اعذرني، ولكنني فيما مضى كنت أعيش في هذا البيت. هذا هو كل الصراع العربي – الإسرائيلي في لقطة صورة، وأنا أقول للأطفال إن الفلسطينيين أعطوا ثمانية وسبعين بالمائة من البلاد التي هم على يقين أنها بلادهم، وهكذا، فيجب على الإسرائيليين أن يعطوا اثنين وعشرين بالمائة التي بقيت [بعد حرب 1967]."

وهو يعرض على الأطفال في المدارس خرائط العرض الذي قدمه رئيس الوزراء إيهود باراك لياسر عرفات في كامب ديفيد قبل أن تنهار "عملية السلام". وتظهر الخرائط قطاعات من الضفة الغربية حجبت عن الفلسطينيين واحتفظ بها للمستوطنين اليهود. وقال: "كان هذا أعظم سر من الأسرار كلها. لأن باراك لم

يسمح قطعياً بعمل خرائط [رسمية]. كان يقترح شيئاً يعلم هو أن الفلسطينيين لن يقبلوه، ولا يستطيعون أن يقبلوه."

"وأي نوع من رد الفعل الذي تحصل عليه، في المدارس، وفي الأحداث العامة؟"

"أراقب وجوه الأطفال حين أعرض عليهم الخرائط وأقول لهم إننا ملكنا ثمانية وسبعين بالمائة، والفلسطينيون ملكوا اثنين وعشرين بالمائة، وهذا هو كل ما يريده الفلسطينيون الآن، وأرى أن الجهل قد رُفع. وأنت تعرف، في إسرائيل، يقال إن المفجوعين مقدسون. الناس يقدمون لهم الاحترام لأنهم قد دفعوا الثمن. وأنا أتلقى ذلك الاحترام، ولكن هناك أناس طبعاً لا يريدون أن يسمعوا ما أقول."

في كل ذكرى ل "يوم القدس"- وهو اليوم الذي تحتفل فيه دولة إسرائيل الحديثة باستيلائها على المدينة – كان رامي يقف في الشارع مع صورة سمادار وحاول أن يقنع الناس بمهمته من أجل السلام. وفي آخر يوم من يوم القدس، وقف أمام علمين متصالبين إسرائيلي وفلسطيني، والناس يقولون له: كان من المؤسف أنه لم ينسف هو أيضاً. وقال: "ذلك هو حجم المشكلة."

"وهل ستفعل ذلك في يوم القدس القادم؟"

"نعم. وسوف يبصق علي بعضهم ويلعونني، ولكنني أعرف أن هذا جزء فقط من المعادلة الإنسانية، إن الجزء الآخر هو الذي يجب أن نحله، وأنا والآباء الآخرون نقوم بصنع البداية."

"ما هو الثمن الذي يدفعه المجتمع حين يدير احتلالاً عسكرياً؟"

"إنه ثمن لا يطاق. وتبدأ القائمة بالفساد الأخلاقي. حين لا نسمح للنساء الحوامل أن يعبرن نقاط التفتيش، ويموت أطفالهن، نكون قد أنزلنا أنفسنا إلى مرتبة الحيوانات ولسنا مختلفين عن المتفجرين الانتحاريين."

"وماذا تقول للناس اليهود في بلاد أخرى، مثل بريطانيا: الناس الذين يساندون إسرائيل لأنهم يشعرون أن عليهم أن يفعلوا ذلك؟"

"أنا أقول إن عليهم أن يكونوا موالين للقيم اليهودية الحقيقية، وأن يساندوا حركة السلام في إسرائيل، لا الدولة، مهما كلف الأمر. إن الضغط من الخارج فقط – من اليهود، ومن الحكومات، ومن الرأي العام – هو الذي سينهي هذا الكابوس. طالما وجد هذا الصمت، وهذا الانصراف بعيداً بالنظر، وهذه الإساءة غير المقدسة إلى نقادنا بوصفهم معادين لليهود، فإننا لا نختلف عن أولئك الذين وقفوا جانباً متفرجين في أثناء أيام المحرقة. ولا نكون نحن مشاركين في جريمة فقط، بل إننا نضمن أننا نحن أنفسنا لن نعرف السلام، وأن أطفالنا الذين يبقون على قيد الحياة لن يعرفوا السلام. وأنا أسألك: هل لذلك أي معنى؟"

"ولكنهم قد يقولون إن اليهود في خطر من أن يدفعوا إلى البحر على أيدي العرب، وإن على إسرائيل أن تقف بحزم؟"

"ندفع إلى البحر ممن؟ نحن أقوى قوة في الشرق الأوسط. ونحن نملك أحد أعظم الجيوش في العالم. وفي هذه العملية الأخيرة [هجوم شارون على الضفة الغربية في نيسان/ابريل من العام 2002]، أرسلنا أربع فرق مدرعة ضد حوالي خمسمائة شخص مسلح. إنها مهزأة. من الذي سيدفعنا إلى البحر؟ من الذي يستطيع أن يدفعنا إلى البحر؟... القضية الحقيقية يتم تمثيلها يومياً عند نقاط التفتيش. إن الولد الفلسطيني الذي تهان أمه في الصباح سيكون متفجراً انتحارياً في المساء. ليس هناك طريقة يستطيع بها الإسرائيليون أن يجلسوا في مقاهيهم ويأكلون ويشربون في الوقت الذي يهان فيه أناس يائسون على بعد مائتي متر والأطفال الفلسطينيون قد بدؤوا يموتون جوعاً. إن المتفجر الانتحاري ليس أكثر من بعوضة. والاحتلال هو المستنقع."

رئيس دائرة الآباء هو إيتسحاق فرانكينتال، الذي كان ابنه أريك، المجند في الجيش، قد خطف وقتل من قبل حماس. وجاء التعبير عن كرم الروح لديه في

خطابه إلى اجتماع من أجل السلام في القدس، قال فيه: "دعوا جميع الذين يزكون أنفسهم بأنفسهم من الذين يتحدثون عن القتلة الفلسطينيين القساة القلوب فلينظروا نظرة جادة في المرآة."

[دعوهم فليسألوا أنفسهم] ماذا كانوا سيفعلون لو أنهم كانوا هم الذين يعيشون تحت الاحتلال. أنا أستطيع أن أقول عن نفسي، أنا إيتسحاق فرانكينتال، كنت قد صرت بلا شك مقاتلاً في سبيل الحرية وكنت قد قتلت من الطرف الآخر أكبر عدد كان من الممكن لي أن أستطيع قتله. إن هذا النفاق الفاسد الأخلاق هو الذي يدفع الفلسطينيين إلى قتالنا بلا هوادة – معيارنا المزدوج الذي يسمح لنا أن نتبجح بأعلى أخلاقيات عسكرية، في الوقت الذي يقوم فيه العسكريون أنفسهم بذبح الأطفال الأبرياء... بقدر ما كنت أود أن أفعل مثل هذا، فأنا لا أستطيع أن أقول إن الفلسطينيين هم الذين يجب لومهم لموت ابني. سيكون هذا هو الطريق السهل للخروج وذلك [لأننا] نحن الذين لا نرغب في أن نضع السلام معهم، إننا نحن الذين نصر على إدامة سيطرتنا عليهم. إننا نحن الذين نغذي دائرة العنف... وإني ليؤسفني أن أقول ذلك.[60]

المنشقون في إسرائيل هم من بين أشجع من قابلت. وباستثناء مردخاي فعنونو المرموق، الذي قضى تسعة عشر عاماً في السجن، ومعظمها في عزل انفرادي، والذي يعيش اليوم تحت اعتقال فعال في المنزل، فإن معظم أولئك الذين ينبرون للدولة الإسرائيلية يبقون في المجتمع، وهناك تكون عقوبتهم في الغالب بلا هوادة. فهم بالنسبة إلى الكثيرين، قد خانوا لا بلادهم فقط بل أسرتهم ويهوديتهم وذكرى ضحايا المحرقة أيضاً. ويرفض أصحاب البقالات خدمتهم، وأصدقاء العمر يقطعون الشارع إلى الجهة الأخرى بدل أن يتكلموا إليهم. ومن دون إنذار يصرخ الناس عليهم ويبصقون عليهم – مثل رامي مع أعلامه.

في وقت كتابة هذا النص، رفض 635 جندياً إسرائيلياً أن يخدموا في فلسطين المحتلة. وزج بالمئات في السجن. وصرح آخرون تصريحات علنية عامة أقلقت نظام الحكم، وكان من جملتهم مظليون، وضباط دبابات، وأعضاء في القوات الخاصة.

وفي أيلول/سبتمبر من العام 2003، أعلن سبعة وعشرون طياراً من القوات الجوية، ومن جملتهم العميد يفتاح سبكتر، بطل في حرب 1967، أنهم رفضوا تنفيذ غارات "غير شرعية وغير أخلاقية على مراكز السكان المدنيين." والأكثرية مجندون شبان من الذين لا بد لهم أن يخدموا ثلاث سنوات في القوات العسكرية. ومنظمتهم هي "شجاعة الرفض."

أمضيت أصيلاً مع واحد منهم، الرقيب السابق إشاي روزن – زيفي، وهو يهودي تقليدي مستقيم. تقابلنا في حديقة في تل أبيب، بعيداً عن العيون غير الصديقة. وسألته ما الذي جعله "رافضاً."[61]

"لقد استغرق الأمر معي لأفكر أكثر مما كنت أرغب. حين وصلت إلى غزة مع وحدتي، كنت أستطيع أن أرى أن ما كنا نفعله كان فظيعاً، ولكنني قمت بواجبي، شعرت أنني غير مطمئن ومحرج، ولكني قمت بواجبي. وفي الإجازة، في البيت، لم أتكلم عن ذلك أبداً، وصرت شخصية من نوع شخصية جيكل وهايد*. وبعدئذ بدأت أدرك أنني كنت في الجانب الخطأ من نقاط التفتيش، وحواجز الطرق التي كنا نزودها بالجنود يوماً بعد يوم. القصة الحقيقية للاحتلال هي في حواجز الطرق. عملك هناك هو اللاشيء، فأنت تقف في المكان، وتفكر لو أنك كنت تستطيع أن تهاتف بيتك لكنت ستقول: هذا ممل." ثم ينكشف لك ما هو هذا اللاشيء في الحقيقة. إنه إبقاء آلاف الناس في الإحباط، وفي الإذلال، وفي الجوع، وفي الغضب.

"تصورها. أنت واقف هناك والساعة هي الخامسة في الصباح، وأنت ترى عيونهم – بعض الناس يمكن أن يكونوا في عمر جدي – وأنت تلمح الإذلال والبغضاء. وتود أن تأخذهم جانباً وتقول لهم. انظروا، أنا إنسان طيب، ليس لي أي

* شخصية جيكل وهايد هي الشخص الذي له شخصية مزدوجة تتناوب بين أطوار الخير والشر. وهي منسوبة إلى رواية القضية الغريبة للدكتور جيكل والمستر هايد للكاتب روبرت لويس ستيفنسون (1850 – 1894) الروائي والشاعر وكاتب المقالات الاسكوتلاندي.

شيء ضدكم. ولكن ذلك طبعاً لا جدوى منه. وبالنسبة إليهم أنت الاحتلال. ولا أحد يعطيك حريته مقابل لا شيء."

وقلت له: "إن الحكومة تصر على أن حواجز الطرق موجودة هناك لإيقاف المتفجرين الانتحاريين عن القدوم."

"حواجز الطرق كانت موجودة هناك قبل خمسة وثلاثين عاماً من بدء التفجير الانتحاري. إن الحواجز موجودة هناك للسيطرة، دائماً للسيطرة."

"هل سبق أن أراد الفلسطينيون الذين ينتظرون تحت سيطرتكم أن يناقشوا هذا معكم؟"

"أنت تملك كل السلطة، وهم لا يملكون أي سلطة. أنت تستطيع، في أي لحظة، أن تأخذ بطاقة هويتهم، وبعد ذلك فإنهم لا يملكون أي شيء، لأنهم من دون بطاقة هوية، يمكن أن يعتقلوا في أي وقت. ولذلك فهم لا يجازفون بأي مخاطر، إنهم لا يناقشون، بل إنهم قد يكونون لا مبالين، ولكن ذلك ليس هو ما في قرارة قلوبهم."

"كيف ينظر إليك الإسرائيليون الآخرون، الناس الذين تقابلهم كل يوم، الذين يعرفون أنك رافض؟"

"بعضهم ينظر إلي بوصفي يسارياً متطرفاً، وهو أمر مضحك، لأنني رجل متدين، وبالنسبة إليهم، فإن السؤال الأخلاقي كلمة لا تدخل في الموضوع، وهم يعتقدون أنني منحرف في عقلي. واحد من أفضل أصدقائي قال لي: حسناً. إنها حرب غبية، ولكنها حرب، وعلينا أن نحاربها."

"وأسرتك؟"

"لا نتحدث عن الموضوع، أو نحن نحاول ألا نتحدث عنه. زوجتي تتحدث كل الوقت عن أشياء أخرى، لأن الموضوع صعب جداً..."

"وبهذا فأنت فعلت هذا وحدك؟"

"نعم، أنا وحيد في هذا."

"ما الثمن الذي دفعته؟"

"أنا لست بطلاً، صدقني. أنا شخص مجروح الشعور، أنا مجروح الشعور حين أكون في السوق ويقول لي شخص ما لا أعرفه: أنا قرأت في الصحيفة ما فعلت أنت. إنه مرعب. الناس الذين هم من أمثالك يدمرون بلدنا. ذلك مثل هجوم بالسكين وأنا أنغمس في معركة شخصية في عقلي، كيف أقولها...؟"

"هل تعني أن عليك أن تستمر في شرحها لنفسك؟"

"نعم، نعم، وليس الشرح وحسب، علي أن أكرر التأكيد لنفسي. علي أن أقول: إشاي، أنت لست خائناً. إن من الصعب أن تقول هذا لنفسك، وأنت وحدك."

"وماذا تقول لأولئك الناس اليهود في الخارج الذين يربطون النقد لإسرائيل بمعاداة السامية؟"

"حسناً، هذه مخادعة ضخمة. إنها أسوأ نوع من الدعاية. الشعب اليهودي في بريطانيا، وفي جميع أنحاء العالم، الذين يلعبون هذه اللعبة من المخادعة يديمون وجود الاحتلال وكل فظاعاته. يجب ألا يسهموا في مثل هذه الوسيلة التي تنتهك حرمة ذكرى المعاناة اليهودية، وألا يستغلوها لتبرير اضطهاد شعب آخر، انه انتهاك للحرمة.

"ما الذي تحب أن تقوله لمواطنيك؟"

"أحب أن أقول إن عليهم أن يفكروا تفكيراً شديداً حول الوطنية، لأن نقد حكومتنا في هذه القضية هو الشيء الوطني الوحيد الذي تركناه."

إن ثمن مثل هذه الوطنية الناقدة يمكن أن يكون عالياً جداً. إن إحدى النساء المسنات، وهي يافّا ياركوني، حاملة جائزة إسرائيل، قررت أن تتحدث برأيها في اليوم السابق ليوم ذكرى الشهداء من العام 2002، وهو اليوم الذي تتذكر فيه إسرائيل جنودها الذين سقطوا وتغني يافّا أغنياتها الوطنية في المذياع. ومنذ العام

1948، لم يمر عام واحد من دون أن تقف ياركوني على خشبة مسرح أمام جمهور عاشق لها وتغني أكثر أغنياتها شعبية. في عامها الخامس والسبعين، صارت هي فيرا لين* إسرائيل. وحين تحدثت، كان ذلك قبل أسبوعين من التقدير القومي لمكانتها الأيقونية في الأساطير القومية.

في يوم ذكرى الشهداء من العام 2002 كان ينتظر أن تعطي يافا مقابلة في مذياع الجيش، مثلما فعلت تماماً كل عام. كانت هي مغنية حروب إسرائيل وكان اسمها مترادفاً مع التطوع من أجل الخدمة العسكرية. عندئذ شن شارون "عملية الدرع الدفاعي" وفجرت دباباته طريقها إلى الضفة الغربية. شاهدت يافّا ياركوني أخبار التلفاز وقرأت الصحف، رأت البيوت المدمرة في جنين والنساء يبكين في الركام وصفوف الفلسطينيين المصفدين، وهم يساقون عبر الشوارع. ورأت صورة جندي إسرائيلي وهو ينقش أرقاماً على أذرعة "المشتبه" بهم من الفلسطينيين فأثرت فيها واستشاطت منها غضباً.

وفي مذياع الجيش، كانوا يتوقعون وصولها. كانت ستظهر في برنامج عنوانه "التطوع والتضامن مع الجنود"، وكانت ستقول بضع كلمات مشجعة للقوات، ثم سيغنون أغنيتها – "ليكن عندك الإيمان، إن اليوم سيأتي." عندما بدأت المقابلة، كان من الواضح أن ياركوني لم تكن في مزاج ملائم لأي شيء من هذا. فتجاهلت الأسئلة وبدلاً عن ذلك تكلمت عن "غياب القيادة" في إسرائيل، ولماذا كانت تأمل أن يقوم أحفادها بالهجرة. وعن الجنود الذين رفضوا أن يخدموا في الأراضي المحتلة قالت: "إن من حقهم أن يفعلوا ما يقول لهم ضميرهم أن يفعلوه."

ازدحم مقسم الهاتف. وسرت موجة من العداء ضدها لا تكاد تصدق. وفي ذلك الأصيل، طُلب منها أن تفسر نفسها في برنامج إذاعي شعبي آخر. فقالت: "حين رأيت

* مغنية بريطانية نشطت في 1935 – 1995. وغنت للجيوش وقدمت برامج نالت إعجاب الجنود من الإذاعة البريطانية.

[الجنود] يقودون [الفلسطينيين] وأيديهم خلف ظهورهم، قلت: إنه مثل ما كانوا قد فعلوه بنا وبالأطفال في المحرقة."

مدير المدرسة التي كان ينتظر أن تتحدث فيها في ذلك اليوم اتصل في الهاتف وألغى ظهورها، وحين وقفت لتغني في نادي تزافتا في تل أبيب، صاح الجمهور ضدها استخفافاً وأساء إليها، وخرج الناس من النادي. وكتب وكلاء عملها اعتذاراً ورجوا منها أن توقعه. كتبوا إنها تطلب "صفح الأمة." ولكنه جاء برد فعل عكسي. وروت جريدة يديعوت أحرونوت اليومية اليمينية أن الاعتذار كان قد "فرض" على ياركوني التي، كما زعمت الجريدة، قارنت الجنود الإسرائيليين بالنازيين. وهذه كذبة لم تصحح أبداً، والتقدير الذي كان سيقدم لأكثر من نصف قرن من "الخدمة البطولية" قد ألغي. وهي مثل رامي الهانان وإشاي روزن – زيفي، أسيء لها في الشارع وسميت "منكرة المحرقة." وكتب محرر الصحيفة الكبيرة التوزيع معاريف: "إن يافّا ياركوني قد التحقت بمعاداة السامية الجديدة في أوروبة."

لقد رفضت أن تتراجع. وقالت ليوسي كلين، وهو صحافي متعاطف من صحيفة ها آرتز: "الأراضي [المحتلة] يجب أن تعاد وهذا هو كل ما في الأمر، إن كتابة أرقام على أذرعتهم... صدمتني فعلاً. أليس هذا هو ما فعله الألمان؟"وقالت إنها تلقت رسالة من أحد الباقين على قيد الحياة من المحرقة، شكرها فيها على ما قالت، لأننا "يجب أن نتعلم من المحرقة ألا نسيء إلى شعوب أخرى ونذلها."

وكتب كلين يقول: "ومن دون أي اعتبار للإزعاج الذي يمكن أن تسببه لنفسها، أثارت ياركوني أسئلة لا تعتبر مقبولة: هل كان النازيون وأعمالهم كياناً فريداً من نوعه أم أن هناك مثل هذا الأمر وهو: أعمال مثل أعمال النازيين؟ هل نحن، ضحايا النازيين، قادرون على فعل مثل هذه الأفعال؟"[62]

بالنسبة إلى اليهود، فإن مجرد إثارة هذه الأسئلة المحرمة يتطلب شجاعة أخلاقية وفكرية، وخيالاً، تُذكِّر كلها بالإنسانيين وبالمصلحين وبالثوريين العظماء لليهودية. وكان إسرائيل شاحاك واحداً من مثل هذه الأصوات، وهو من

اليهود الذين بقوا على قيد الحياة من حي اليهود (الغيتو) في وارسو وبيرغن – بيلسين، وهو أستاذ الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية في القدس ومؤسس حركة السلام الإسرائيلية.

في السبعينيات من 1970 قمت بزيارات عديدة إلى شقته الصغيرة، المتروكة بلا ترتيب، في تل أبيب. وهو يقدم لي كرسياً ويجلس على كوم من الكتب، وكل كتاب منها تخرج منه أوراق كأنها البراعم وقد خربش عليها ملاحظاته. كان وجهه مليئاً بالندوب بصورة مرعبة نتيجة لأعمال التعذيب النازية، ونظرته من خلال نظارته المزدوجة البؤرة نظرة لا تخطيء، وصوته الذي ينبعث كالصرير يرتفع ويرتفع، ثم ينفجر ضاحكاً. وكانت كلمتا "يعجز عنه القول" و"السلام" من الكلمات الأثيرة لديه.

وصرح قائلاً: "السلام"، وهو يدير الكلمة حول لسانه، "سوف يأتي السلام فقط حين لا تبقى حقوق اليهود موضوعة فوق حقوق الإنسان. ذلك ما يعجز عنه القول! لم يظهر فينا أبداً مارتن لوثر أو كالفن الذي قال: انتظروا لحظة، لقد كنا على خطأ في بعض المبادئ الأساسية طوال آلاف السنين. إذا كانت إسرائيل ديمقراطية، فلماذا نحن خائفون إلى هذا الحد من أن نغير؟ لماذا نحن منغلقون في تأمل استبطاني دائم؟ حين يتحدث الناس لصالح المصالح اليهودية فقط يعتبرون أناساً قد رأوا النور.

"حين دافع زولا* عن دريفوس لم يعتبره اليهود رجلاً أحب العدالة، بل اعتبروه رجلاً محباً لليهود! واليوم [1974] عليك فقط أن تنظر في الكتاب السنوي للإحصاءات الإسرائيلية، وتستطيع أن ترى أن كل شيء في إسرائيل مصنف في نوعين: يهودي وغير يهودي... الخضراوات! والبطيخ! والمواليد!... غير اليهود، الذين اتفق أنهم الأكثرية هنا، هم من قبيل ما يعجز القول عنه!"

* يشير إلى قضية النقيب ألفرد دريفوس (1859 – 1935) الضابط الفرنسي اليهودي الذي اتهم بالخيانة ثم تبينت براءته، وأدى ذلك إلى انقسام في الساحة السياسية الفرنسية. ودافع عنه الروائي والكاتب والناقد الفرنسي الكبيرإميل زولا (1840 – 1902) في رسالة مشهورة بعنوان: "إني أتهم". ودخل الكاتب السجن من أجل ذلك. (المترجم)

وسألته هل تعتقد أن اليهود والعرب سوف يعيشون في أي وقت معاً في سلام؟

وأجاب: "نعم! ولكن فقط إذا كان هناك أمن لكلينا. نحن لن نملك الأمن إذا كنا نفكر فقط بوصفنا يهوداً."[63]

وفي الأعوام الحديثة، نطق "المؤرخون الجدد" في إسرائيل بالقضايا التي "يعجز القول عنها"، وهؤلاء المؤرخون هم الذين رفضوا أن يقبلوا ميلاد دولة إسرائيل بوصفه القدوم المعجزة. وقد قابلت في حيفا إيلان بابي، وهو واحد من أشجع المؤرخين التنقيحيين، ولسعة معرفته معنى أخلاقي جذاب، وكأنه كان يعوض عن الوقت الذي أضاعه الآخرون. في كتابه مقومات النزاع العربي – الإسرائيلي، 1947 – 1951، يتحدى زعم المؤرخين الصهاينة الذين يقولون إن حرب العام 1948 مع العرب، وهي التي أدت إلى تأسيس إسرائيل، كانت حرباً خاضوها لمنع "محرقة أخرى." وهو يضع "أسطورة الإبادة" هذه في مقابل قسوة القيادة اليهودية نحو أي مقاومة فلسطينية أبداها الفلسطينيون لطردهم من أراضي وطنهم.

وكانت إحدى القضايا التي أثارت أشد الخصام حول حرب 1948 هي سبب هروب مئات الآلاف من الفلسطينيين من بيوتهم في الشهور والأسابيع التي سبقت إعلان استقلال إسرائيل. ففي الوقت الذي حاجج فيه السياسيون والمؤرخون العرب لوقت طويل أن هذه كانت سياسة مدبرة للتطهير العرقي، فإن "النسخة الوطنية" الإسرائيلية ترى أن القادة العرب هم الذين أمروا بالرحيل عن فلسطين وشجعوا عليه. ولكن المؤرخين التنقيحيين فتحوا سجلات عبرية لم تر من قبل وفتحوا ملفات استخبارات تصف خطة عسكرية مفصلة تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين، ومن جملتها سياسة متعمدة "تطلب استسلام السكان [الفلسطينيين]" وتدمير القرى والاستيلاء عليها من قبل المستطونين اليهود. وكانت هذه الخطة معروفة باسم "خطة داليت" أو "خطة د".[64]

وفي كتاب تاريخ فلسطين الحديثة، يقول بابي إن المجازر والفظاعات الوحشية، من مثل قتل مائتي إنسان في دير ياسين، "لم تكن قد اقترفت عشوائياً،

بل هي جزء من خطة رئيسية لتخليص الدولة اليهودية المستقبلية من أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين."[65] هذه كانت النكبة، "الكارثة" التي يحزن منها الفلسطينيون. وكتب بابي يقول: "إن 900,000 نسمة تقريباً طردوا بالقوة... وهكذا كانت القوة العسكرية هي التي مكنت لقيام إسرائيل، ومعها التطهير العرقي، واجتثاث العرب من البلاد."[66] وقد كتب مستشار بن غوريون للشؤون العربية يقول: "يجب أن نكون بلا رحمة، وأن نقتل النساء والأطفال كذلك."[67]

وقد هوجم بابي، مع أميرة هاس ومع المنشقين الإسرائيليين الآخرين، هجوماً شرساً خبيثاً. وقد قيل عنه إنه "مسيّس تسييساً عالياً" وأنه "يهودي آخر يكره نفسه". وقد هددت جامعة حيفا بطرده بعد أن دافع عن أحد طلابه وهو الطالب الذي كشف بحثه الذي أجراه لكتابة رسالة الماجستير أن مائتين من الفلسطينيين قد قتلوا على أيدي القوات اليهودية المتقدمة في الطنطورة، وهي بلدة تقع إلى الجنوب من حيفا، وذلك في العام 1948. وبعد أن قرأ مخطوطات مدونة من أكثر من ستين ساعة من الأدلة التي حصل عليها طالبه، تيدي كاتز، من أكثر من أربعين شاهد عيان، صار بابي مقتنعاً بصحتها. وقد كتب يقول: "إنها تحتوي على أوصاف مروعة لتنفيذ أعمال القتل، ومنها قتل الآباء أمام الأطفال، والاغتصاب، والتعذيب."[68] ولكن كاتز ارتكب أربعة أخطاء صغيرة، وعلى الرغم من أنه منح درجة عالية من قسم الشرق الأوسط في الجامعة، فإن درجته قد ألغيت. ووصلت القضية إلى الصحف، وجرى الضغط على كاتز، وهو صهيوني مخلص، كي يقدم الاعتذار.

ووقع بابي أيضاً تحت ضغط شديد. ولكنه احتفظ بعمله بفضل مساندته عن طريق التهديد بالمقاطعة الدولية الأكاديمية. لقد كانت قضية كاتز قضية حفازة، وكانت بدعة بابي هي معارضته الصريحة للاحتلال، وعلى وجه الخصوص، قيامه بفضح الزيف في أسطورة "عملية السلام" في أوسلو ولماذا "فشلت".

وهذه هي أهم أسطورة معاصرة من أساطير إسرائيل. وتقول هذه الإسطورة إن سلف شارون، وهو إيهود باراك، كان قد عرض على الفلسطينيين عودة "90 بالمائة" من الأراضي المحتلة في كامب ديفيد في العام 2000 وأن ياسر عرفات رفض عرض

باراك. وصار رفض عرفات المزعوم لهذا "العمل غير المسبوق من الكرم" هو صيحة الشعار البراق للإساءة المتجددة للفلسطينيين ولعرفات، والمبرر الرئيسي "لعملية الدرع الدفاعي" ولبناء جدار التمييز العنصري.

لم يكن هناك أي عرض يشمل "90 بالمائة". وفي كامب ديفيد، وعد باراك بانسحاب عسكري رمزي من مساحة ليست أكثر من 12 بالمائة من الأراضي المحتلة. وأوضح توضيحاً جلياً أن إسرائيل ليس لديها النية في إعادة أي جزء من القدس الكبيرة، التي تغطي بعضاً من أفضل الأرض الفلسطينية والتي تشكل القلب الإداري والثقافي لفلسطين. ومعظم المستوطنات غير الشرعية، التي سيطرت على 42 بالمائة من الضفة الغربية وغزة، سوف تبقى، تاركة بذلك للفلسطينيين قطعاً مجزأة من أرض وطنهم الأصلية أو 15 بالمائة من فلسطين ما قبل قيام إسرائيل.[69]

وقد كتب المفاوض الرئيسي لباراك في كامب ديفيد، وهو شلومو بن – آمي، قبل أن يتولى دوره مفاوضاً، وقال: "من الناحية العملية، كانت اتفاقات أوسلو قد تأسست على أساس استعماري جديد، على حياة اعتماد طرف على آخر إلى الأبد."[70] وفي الوقت الذي أثنى فيه اليهود الموجودون في الخارج على الإنعام المتصور الذي تفضل به باراك، فإن كثيرين من اليهود كانوا يعرفون معرفة أفضل، كما كتب نعوم تشومسكي. لقد فهموا أنه يجري إنشاء مستعمرة غير مستقلة وهي "بانتوستان مقترحة من النوع الذي أسسته جنوب إفريقية في أحلك أيام التمييز العنصري." وهو ما سوف يركز الحياة الفلسطينية في ثلاثة "كانتونات" تحت السيطرة الإسرائيلية، وهي عملياً مفصول أحدها عن الآخر وهي مفصولة عن كانتون رابع، وهو منطقة صغيرة من القدس الشرقية. "وذلك كان هو السبب، حسب ما يفترض، الذي تم من أجله تجنب الخرائط بكل حرص في مجرى التفكير العام في الولايات المتحدة."[71]

وبدلاً من إعادة العاصمة الفلسطينية إلى القدس العربية، فإن مركز الحياة الفلسطينية حدد في قرية مجاورة هي أبو ديس، وكان الإسرائيليون قد استخدموها مكباً للقمامة. وسوف يسمح لنسبة ضئيلة فقط من اللاجئين بالعودة وسيتعين على

الفلسطينيين أن يتخلوا إلى الأبد عن حقوقهم في العودة – وهو حق لا تنتهك حرمته بموجب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وليست السلطة الإسرائيلية فقط هي التي ستسود، بل إن المحاكم الإسرائيلية أيضاً، وفق ما روته جريدة هآرتز، ستحتفظ بسلطات الاعتراض (فيتو) على أي تشريع فلسطيني "قد تعرض المصالح الإسرائيلية الكبيرة للخطر."[72]

وقد سألت إيلان بابي حول هذا، فقال: "في صيف العام 2000 تُرك الفلسطينيون مع عرض 10 بالمائة مما كان في السابق فلسطين: وهو ما يمكن أن أسميه الدولة بلا دولة مع عدم وجود سيادة حقيقية لها، ومع عدم وجود سياسات خارجية اقتصادية أو سياسية مستقلة، ومع عدم وجود عاصمة مناسبة لها، وهي متروكة تحت رحمة الخدمات الأمنية الإسرائيلية. وفي مقابل ذلك، طُلب من عرفات أن يعلن نهاية النزاع، وأنه لن يكون هناك بعد ذلك مطالبات بالاستقلال."

وقلت له: "إن الرئيس كلينتون، وهو مضيف كامب ديفيد، قدم نفسه بوصفه حيادياً عادلاً. هل من القوي جداً أن نصف دوره بأنه خيانة؟"

"لا أظن أن ذلك قوي جداً. إن تعبير (عملية السلام) ينتمي إلى القاموس الأمريكي، لم يكن هناك أي جهد دبلوماسي حقيقي من أجل السلام. و[كلينتون] قَبِل التصور الإسرائيلي للسلام، وهو أن يُملي على الفلسطينيين، ويُغلف ذلك في خطاب عن السلام ويقدمه إلى العالم بوصفه جهداً سلمياً حقيقياً. ولمدة من الوقت، قَبِل الفلسطينيون هذا التصور، وفي الاحتفال في مروج البيت الأبيض في العام 1993 [بمشاركة كلينتون، وعرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين]، تم إخراج الموضوع كله على المسرح بطريقة تجعل من الصعب جداً الاعتراض عليه، لأنك سوف تدعى (معادياً للسلام). وكانت الحقيقة هي أنهم وقعوا على وثيقة لم يكن لها علاقة ولو بواحدة من القضايا المركزية التي كانوا يتصارعون حولها طوال أكثر من مائة عام."

"هل مقارنات مكاسب الفلسطينيين مع بانتوستانات جنوب إفريقية التمييز العنصري هي مقارانات صحيحة؟"

"يجب أن أقول، من وجهة نظري الشخصية إن [التشبيه بالتمييز العنصري في جنوب إفريقية] هو شيء جديد وحديث... ولكني اعتقد أنه يساعد لتوضيح الموقف. هناك سياسة واضحة للفصل وللتمييز العنصري في الضفة الغربية وغزة. أما نحو الأقلية الفلسطينية داخل إسرائيل، وهي حوالي مليون نسمة، فهذه السياسة نسخة من التمييز العنصري، ولكنها أكثر حذقاً ودقة، وهي مطبقة على كل مستوى: تشريعي، وقانوني، واقتصادي. ثم هناك موقع أناس من أمثالي أنا نفسي. فنحن [الذين نعترض] مغربون كلياً عن مجتمعنا الخاص بنا، وهو ما يعني أننا إلى حد كبير جداً مثل أولئك البيض في جنوب إفريقية الذين قرروا أن يلتحقوا بالمجلس الوطني الإفريقي. فنحن مثلهم، نبدو وكأننا نعمل ضد كل شيء مصون أو مقدس في عيون مجتمعنا الخاص بنا. ومثل أولئك الذين عارضوا التمييز العنصري، يتعين علينا أن نكون مستعدين أن نذهب إلى الحد الأقصى: أي، أن نطلب من الآخرين أن يفرضوا عقوبات على مجتمعنا الخاص بنا لأننا نعتقد أنه لا توجد أي طريقة أخرى لتغيير ذلك الأمر الذي يعتبر مدمراً تدميراً أساسياً لإسرائيل ولجيران إسرائيل."

"ما هو الحل؟"

"أنا أعتقد، أننا في نهاية المطاف، سوف يتعين علينا أن يكون لنا دولة واحدة هنا. قد يكون علينا أن نمر عبر مرحلة الدولتين، ولذلك فأنا لا أعارض فكرة حل الدولتين، بشرط أن يفهم الناس أن ذلك سوف يقود إلى دولة ستكون ديمقراطية وعلمانية، وسوف تضم عدداً كبيراً من اللاجئين. هذه هي الطريقة الوحيدة لستة ملايين من اليهود ولستة ملايين من الفلسطينيين، الذين سيكونون هنا في غضون عشر سنوات أو خمس عشرة سنة قادمة، ليكونوا قادرين على العيش في هذه المساحة الضئيلة، بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. قد يحتاجون إلى هياكل سياسية منفصلة، وكونفيدرالية، ولكن سيتعين أن تكون الدولة دولة واحدة لجميع الناس."

"وهل ذلك ممكن؟"

"إنه ليس ممكناً في الأمد القصير. فمثل هذا الحل طوباوية في الأمد القصير، ولكنه ممكن – وأنا أقول ذلك بحزن كبير – فهو ممكن بعد نازلة فقط، وآمل ألا تكون كارثة، بل نوعاً من الأحداث أو التطورات التي ستكون تبصرة تفتح العيون. وهذا هو السبب الذي أساند من أجله فرض عقوبات على بلادي، وأدفع ثمناً غالياً لقولي هذا. وأنا أشرح لأصدقائي ولزملائي أنني أفضل أن أدفع ثمناً اقتصادياً لا أن أدفع ثمناً من حياة النفوس البشرية. وهذا مشابه جداً لحالة جنوب إفريقية، ففيها لم يكن المجلس الوطني الإفريقي وحده ليستطيع أن يأتي بنهاية للتمييز العنصري. كانت هناك حاجة إلى حملة منسقة من العقوبات، وتلك هي التي نجحت في النهاية."

"وكيف تتعامل مع المتعصبين في الحكومة: شارون والمؤسسة الإسرائيلية الحالية؟ إنهم يمتلكون سلطة كبيرة للغاية."

"إنهم يمتلكون الكثير من السلطة، وأنت لا تستطيع أن تعمل ضمن ذلك. وهذا هو المكان الذي تكون فيه أوروبة مهمة. هؤلاء المتعصبون يحملون صورة عن ذاتهم بأنهم ينتمون إلى أوروبة لا إلى الشرق الأوسط. إنهم على خطأ، فإسرائيل لها مستقبل فقط إذا هي أدركت أنها جزء من الشرق الأوسط وليست حصناً للثقافة الأوروبية. ولذلك، فإن الضغط الأوروبي عليهم، الذي يدين إسرائيل من منظور أوروبي، يستطيع أن يكون له أثر عليهم. ثم هناك الولايات المتحدة. وأولئك الذين هم مثلي أنا نفسي يميلون إلى التفكير في أمريكا بوصفها قضية خاسرة، ولكن المشهد السياسي الأمريكي أكثر تعقيداً بكثير مما تراه العين، ولا أظن أن الفلسطينيين ومساندهم قد استكشفوا المداخل المفتوحة لهم هناك استكشافاً كافياً. وهم بذلك قد سمحوا بوجود فراغ، وذلك هو السبب الذي يجعل جماعة الضغط الموالية لإسرائيل (اللوبي) قوية جداً، لا لأنها قوية في الجوهر، بل بسبب عدم وجود أحد يعارضها هناك."

"وماذا عن الحصانة التي مازالت إسرائيل تتمتع بها في القضايا الدولية، وقوة ذكرى المحرقة؟"

"ذكرى المحرقة مركزية بالنسبة إلى الطريقة التي تعامل بها إسرائيل وإلى الطريقة التي يرى بها الإسرائيليون أنفسهم. إن المحرقة تسمح للإسرائيليين أن يفعلوا أي شيء: ولو كانت الإبادة الجماعية العرقية، وليس هناك أي نقد داخلي. وليس مسموحاً للأوروبيين، ولا لبقية العالم الخارجي، بنقد إسرائيل، وهكذا فإن أي شيء يقع بين الإبادة الجماعية العرقية وبين الاحتلال الرحيم ليس مفتوحاً للنقد، وإن أنت كسرت تلك القاعدة، فأنت متهم بمعاداة السامية.

"ثم هناك استغلال المحرقة المثير جداً للاهتمام، استغلالها في شيطنة العرب، على وجه العموم، والفلسطينيين، على وجه الخصوص. وقد بدأ هذا الأمر مع بيغن حين شبه عرفات بهتلر في العام 1982. وأنت تستطيع، طبعاً، أن تنزع الإنسانية عن الفلسطينيين بمقارنتهم مع النازيين، وبالتالي فأنت مخول أن تفعل بهم أشياء كان يمكن للإسرائيليين الحساسين أن يحتجوا ضدها لو أنهم سمعوا عنها تحدث في أجزاء أخرى من العالم."

"أليست هذه التهمة بمعاداة السامية خلطاً متعمداً للنقد الصحيح لإسرائيل مع الهجمات المعادية للسامية من قبل جماعات أقصى اليمين في أوروبة؟"

"تلعب معاداة السامية دوراً مهماً جداً في محاولة الإسرائيليين أن يضبطوا النقد القادم من الخارج. وفي الوقت نفسه، فإن أقصى اليمين الأوروبي يستغل الغضب المبرر الذي يبديه المجتمع الأوروبي المدني حول الاحتلال الإسرائيلي. إن استغلال إسرائيل لهذا أمر مثير جداً للسخرية. فما يفعله الإسرائيليون هو أن يأخذوا الظاهرة الهامشية من معاداة السامية ويزعموا أن هذه هي الظاهرة الرئيسية. وبعض الحكومات في أوروبة تلعب متعاونة مع هذه اللعبة: وعلى سبيل المثال، الحكومة البريطانية.

"وأي محاولة لامتلاك سياسة أوروبية منسقة معارضة للسياسات الإسرائيلية بوصف ذلك شرطاً مسبقاً أصيلاً للسلام فإنها تلقى المقاومة المعوقة من الحكومة البريطانية – ومن ألمانيا. وفي حالة ألمانيا، فسوف يستغرق الأمر جيلاً آخر بالنسبة

إلى الألمان ليتحرروا تماماً في مجال كونهم قادرين على فصل القضيتين: فصل معاداة السامية عن نقد إسرائيل."

"ألا يعود الكثير من هذا إلى الخوف في إسرائيل من أنهم سوف يقذفون في البحر؟"

"إنه خوف حقيقي يخافه الإسرائيليون واليهود على حد سواء. وهو خوف آت من الجهل أولاً وقبل كل شيء، ومن الاستغلال الذي تمارسه الحكومات الإسرائيلية. إنه خوف كان له ما يبرره في بداية المشروع الصهيوني، لأن الاستعمار الصهيوني ووجه بالرفض من السكان الأصليين ومن العالم العربي [الأوسع]، وكانت هناك محاولة لإنهائه. ولكن ذلك كان منذ ستين عاماً خلت والحكومات العربية والشعب العربي على حد سواء تصالحوا مع الحقيقة وهي وجود عضو حي هنا، وهو مجتمع يهودي في إسرائيل، ولا أحد يرفض، لا من الناحية العملية الذرائعية ولا من الاعتبارات الأخلاقية، أن يفكر فيه بعد الآن. وما هو مهم هو أن الضحايا، في السنوات الخمسين الماضية، كانوا هم الفلسطينيين، لا الإسرائيليين، وكان الجناة هم الإسرائيليين، لا الفلسطينيين. والخطر الحقيقي اليوم ليس هو أن اليهود سيقذفون في البحر، بل هو أن الفلسطينيين سيقذف بهم إلى خارج أرض وطنهم – وهناك، بعد كل شيء، مثال الملايين الذين قذف بهم إلى الخارج من قبل."

"هل تلعب دعاية الحرب دوراً كبيراً في إسرائيل؟"

"نعم، انظر إلى اللغة المستعملة. فلسطين ليست فلسطين، إنها البنية التحتية للإرهاب. وبما أن الجيش الإسرائيلي يؤثر على معظم وسائل الإعلام، فإن كل المناقشة لحرب التحرير، ولو كانت حرب عصابات، يجري تجنبها. فليس مسموحاً لك أن تقول في وسائل الإعلام الإسرائيلية (مقاتلو حرب عصابات). وليس مسموحاً لك أن تقول (الاحتلال). وليس مسموحاً لك أن تقول (الضفة الغربية) و(قطاع غزة)، ويجب عليك أن تقول (اليهودية) و(السامرة). وهذا كله جزء من تشويه الماضي ومن تجريم الطرف الآخر. إن إنهاء الاحتلال سوف يجد الكثير من المساندة الشعبية في

إسرائيل. ولكننا مكيَّفون لكي نرى (الإرهابيين) والمجرمين فقط، والثقافة الإسلامية التي تحاول أن تقتل أكبر عدد ممكن من اليهود. وبعد 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، فهمت وسائل الإعلام الإسرائيلية أنها كانت تستطيع أن تقفز إلى العربة وتضع الفلسطينيين في (الحرب على الإرهاب)، مبررة بذلك كل أنواع الارتباطات التي لم يكن لها وجود أو كانت خاطئة وحسب."

"أليس صحيحاً أن إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، مع كل أخطائها، فهي تستحق الحماية؟"

"أولا وقبل كل شيء، إنها ديمقراطية لليهود. وهي ليست، بالتأكيد قطعاً، ديمقراطية للفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل والذين يشكلون عشرين بالمائة من السكان. والاختبار الرئيسي لأي ديمقراطية هو الطريقة التي تعامل بها الأقلية، والدولة التي تفرض معاناة غير ديمقراطية أبداً على المنطقة المحتلة، تخفق في أن تكون ديمقراطية. نعم، كان هناك في السابق لعبة من الديمقراطية في إسرائيل، ولكنهم تخلوا عن ذلك. أما الآن فهي لعبة تسمح للحكومة وللجيش أن يفعلوا ما يشاؤون. فهم يستطيعون التمييز ضد الفلسطينيين وقتلهم كما يشاؤون. وهم يستطيعون أن يضايقوا باستمرار أناساً من أمثالي وأن يخيفوهم لينصاعوا لأنهم من اليهود غير الصهيونيين.

"ما ثمن إبداء الرأي بحرية من دون خوف؟"

"طالما استمرت لعبة الديمقراطية قائمة، فالثمن هو العزلة. لقد تأثرت ترقيتي في الجامعة. وكان هناك مزاج تُرجِم إلى مكالمات هاتفية للتهديد. ولكني لم أُهاجَم جسدياً أبداً، ولا سجنت بسبب آرائي. أنا الآن قلق من أن يكون هناك لعبة جديدة في المدينة، تبدأ بانتخابات شارون في شهر شباط/فبراير من العام 2001، وفيها سوف يعامل أناس مثلي من دون لباقة. إن مجموعة معينة من اليهود، من أمثالي، من الذين كانوا حتى الآن محصنين بسبب لونهم، كما نقول، على أفرادها الآن أن يكونوا حريصين جداً، لأننا كما أعتقد على وشك أن نُعامل بالطريقة نفسها التي يعامل بها الفلسطينيون."

"ما أثر كل هذا على المجتمع الإسرائيلي؟"

"في غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة القادمة، سيكون لدينا هنا مجتمع من المتعصبين، ويدار وفقاً لقواعد الحكومة الدينية (الثيوقراطية) بدلاً من الديمقراطية، مع الكثير من العنف، محلياً وخارجياً. وسيكون من الصعب التمييز بين العنف المفروض على الأراضي المحتلة، والمفروض على الأقلية الفلسطينية في إسرائيل، والمفروض نحو الناس من أمثالي، وبين العنف الكلي المفروض من المجتمع. وهناك دراسة مثيرة للاهتمام تبين تصاعد العنف المحلي – أي، العنف بين الأزواج والعنف في المجال العام في إسرائيل. فالناس الذين خدموا في الجيش لا يستطيعون أن يحرروا أنفسهم من عقلية القوة حين يعودون إلى البيت وإلى الحياة المدنية."

"أليست الاختلافات الموجودة بين التقاليد الإنسانية لليهودية وبين قومية الصهيونية مختلطة بانتظام وعن عمد تقريباً؟"

"نعم، هناك عالم من الاختلاف. وهذا هو الأمر الذي يساعدني على الاستمرار في اعتبار نفسي يهودياً لا صهيونياً، وعلى ألا استسلم لأي شخص يقول لي إنك لا تستطيع أن تكون يهودياً لأنك مناوئ للصهيونية. اليهودية مدخل شامل للحياة. إنها سارت ضد كل فكرة من أفكار القومية، لقد كانت هي الوصايا العشر، وكانت تجعل المجتمع مكاناً أكثر عقلانية للعيش فيه. وقد أخذت الصهيونية هذه الرسالة الشاملة وضيقتها للغاية، وكأن ما كانت تدور حوله اليهودية هو أرض، وعلم، ونشيد، وعلى الرغم من أنني لا أبرىء أي شخص من معاداة السامية، فإنني أعتقد مع ذلك أن هذا التشويه لليهودية بصفتها استعماراً قد خلق نوعاً جديداً من معاداة السامية."

كان الوقت وقت الغسق حين مشيت عبر "الأرض الحرام،" من نقطة التفتيش العسكرية بين إسرائيل وبين قطاع غزة. وطريقة السيطرة هنا نكدة، وكفؤة، وعلى النقيض من فوضى الضفة الغربية، وتذكرني بنقطة تفتيش تشارلي* التي

* صارت هذه النقطة رمزاً للحرب الباردة، والفصل بين الشرق والغرب. وكانت هناك نقاط أخرى مثل ألفا، وبرافو. وسميت بذلك وفق الأبجدية الصوتية ألف، باء، جيم. (المترجم)

كانت تفصل برلين الشرقية عن الغربية. وبدا أن المرور الإنساني الوحيد الذي كان يجري هو مرور الأجانب والمسؤولين. "لقد نجحوا في جعل العرب يختفون." كما قال مرة عن تل أبيب آيفي مغربي، مخرج الأفلام الإسرائيلي الذي أخرج الفيلم التوثيقي الساخر: كيف تعلمت أن أتغلب على خوفي وأحب أريك شارون."[73] وبراعة اليد نفسها كانت قد تحققت عند بوابات أكثر ركن في العالم العربي اكتظاظاً بالسكان. ويسمي الإسرائيليون عملهم هذا "الإغلاق"، وبتعبير آخر، فالإسرائيليون قد بنوا جداراً حول مليون وربع المليون من الناس وأغلقوا عليهم.

وبعد أن صرت في الداخل، وجدت نفسي مستغرقاً باكتئاب سوداوي، وكنت فيه كأنني منتهك لحرمة مكان سري للحداد الحزين. وخيوط الدخان المتصاعدة من النيران الموقدة بالحطب معلقة فوق البحر الأبيض المتوسط نفسه الذي تعرفه الشعوب الحرة، والشمس الحمراء كالنار، هي نفسها تهبط على أولئك الذين لم يعرفوا الحرية أبداً. وعلى طول الشواطئ التي يمكن أن يعتبرها السواح رائعة جديرة بالتصوير كان بعض المحصورين من غزة يمشون متثاقلين مجهدين، وصفوف من الأشكال الداكنة صارت شخوصاً ظلّية، تمشي عند حافة الماء، عبر صرف صحي يرتطم بالحافة وهو يتدفق من "المستوطنة" اليهودية في نيتساريم. وهم يكافحون في مشيهم ويميلون ويسقطون في الغالب على الرمل وعلى الحجارة.

وعلى ردم ترابي أعلى من الشاطئ سار طريق غزة الرئيسي الوحيد، طريق صلاح الدين، الذي كان في ما مضى يسير كل الطريق إلى القاهرة. وقطاع غزة لا يكاد يصل إلى 25 ميلاً طولاً و3 أميال عرضاً، وهذا الطريق هو العمود الفقري للقطاع. ومع ذلك فالطريق قد قطع هنا من قبل الجنود الإسرائيليين، وهو ما أجبر الناس والسيارات على السير على الشاطئ. وكان هذا لضمان "الأمن" من أجل "المستوطنين" في نيتساريم، الذين سكنوا في واحة طفيلية داخل سجن غزة، وهناك يتخيلون أنهم يسكنون في مكان يدعى اليهودية. وعند نقطة تفتيش نيتساريم هذه وقع إطلاق النار السيئ السمعة على محمد الدرة ابن الثانية عشرة، إطلاق النار حتى الموت حين حاول أبوه عبثاً وهو المجروح جرحاً قاتلاً أن يحميه من النيران الإسرائيلية.

وتحيي ذكراهما صور جدارية إيقونية ضخمة علّمت عليها طلقات الرصاص كأنها آثار الجدري.

وقف أبو رائد سلطان، وهو مزارع، على الجانب الآخر من الطريق في المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه. وكانت ابنته تغريد إلى جانبه، ورحبت بي باللغة الإنجليزية. وقالت: "والدي ليس بحالة جيدة. فهو يجد ما قد حدث مستحيل التصديق تقريباً." وشرحت لي أن العائلة كانت تملك بستان حمضيات صغيراً، وهو الذي جلب لجيلها "أول رفاهية منذ ما قبل العام 1948". وقد كانت هي أول فتاة تذهب إلى الجامعة. وفي صباح يوم من شهر آذار/مارس من العام 2002، وصل والدها إلى البستان مع أخيه فوجدا هناك دبابة إسرائيلية تحطم مجموعة من الأشجار بعد مجموعة. لقد أُعلنت أرضهم جزءاً من "المنطقة الأمنية" من أجل "المستوطنين".

لم يكن هناك أي إنذار، صاح الجنود عليهما وقالوا لهما إنهما إذا استمرا في العمل في الأرض فسيكونان في خطر من إطلاق النار عليهما. وبُنيت التحصينات العسكرية. وقالت: "انحطت الحال بوالدي إلى أن صار يبيع البرتقال الإسرائيلي المستورد في السوق."

وسألتها: "كم يكسب من هذا؟"

"إن الإسرائيليين أغرقوا السوق. فعشرة كيلو غرامات من البرتقال تدر أقل من دولار. وهو يعيل أسرة من ثلاثة عشر طفلاً، ويشتري كتبي اللازمة للجامعة. وهو مزعوج لأنني قد أضطر إلى ترك الجامعة. ويريدنا جميعاً أن نكون محامين وأطباء مع التعليم الذي لم يتمكن هو أن يناله قطعاً."

وشرحت لوالدها ما كانت قد قالته لي، واعترض هو. وقالت: "يريدك أن تعرف أنه سيبيع دمه شخصياً ليحافظ على أسرتنا مستمرة."

حين تقابلنا، كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون الوصول بها إلى الأرض من خلال مقبرة هي "مقبرة الشهداء" وهي المكان الذي يدفن فيه مقاتلو لجان

المقاومة الشعبية، والمفجرون الانتحاريون يدفنون هنا، ووجوهم الناضرة تطل من خلال شريط من الشواهد البيضاء الموجودة على القبور. ومن بين المدفونين هنا والد هذا المزارع، وهو الذي صودرت أرضه في العام 1948 بطريقة استبدادية، مشابهة. وفي المرة الثانية التي حدثت فيها المصادرة كان ينام بين أشجار البرتقال والليمون على أمل أن يكون وجوده في الأرض مانعاً للجرافات. ولكنه توفي بعد ذلك مباشرة.

ومن خلال فجوة في السياج المحيط، راقبنا أناساً يعملون في الأرض، يشرف عليهم جنود في تحصينات عسكرية. وقالت لي تغريد: "إنهم يطلقون النار حين يحبون ذلك. ومن حين إلى آخر، قبل بزوغ الفجر، تأتي الدبابات وتسير فوق الأرض المزروعة حديثاً."

وسألتها: "لماذا تحافظ أسرتك على ذلك مستمرة في هذه الظروف؟"

"أبي وعمي مصممان جداً. وعمي يرفض أن يذهب إلى السوق ليبيع برتقالاً إسرائيلاً."

وحين كنا نشاهد ما يجري في الأرض، انطلقت الطلقات النارية، وأجبرتنا على الرجوع إلى خلف شواهد القبور. وفي ذلك الوقت تماماً وصل أخو المزارع، وكان رجلاً ضخماً يستشيط غضباً إلى درجة تجعل المحادثة معه مستحيلة. خطا خطوات واسعة إلى الحقل، وصاح بشيء ما علينا، ثم استدار وصرخ صرخة مدوية أفرغت غيظه وتحديه على الجنود الموجودين في التحصينات العسكرية. في العام 1974، صورت في فيلمي مزارع زيتون كان في قبضة مثل هذا التوقد الغاضب نفسه تقريباً. وفي أكثر من ربع قرن، لم يتغير شيء.

الدكتورة منى الفرا طبيبة في مستشفى العودة في مخيم جباليا للاجئين في غزة. وهي تتحدث بإنجليزية سريعة، وتتقافز الكلمات على لسانها سلفاً قبل التحدث بها. قالت لي: "أنا أستطيع أن أبقي (أنقذ) على الحياة هنا، ولكن يجب أن أكون يقظة الانتباه، ويجب أن أكون سريعة." وكانت حماستها متجهة نحو جمع

المال من أجل إجراء عمليات الجراحة التجميلية للأطفال المصابين بجروح من الرصاصات المطاطية. وطلبت منها أن تصف لي متى حدث هذا آخر مرة.

فقالت: "منذ ثلاثة أشهر، وقفت دبابتان أمام المستشفى، وفتحتا النار. فقتل سبعة عشر شخصاً وجرح ثمانية وثمانون، ومن بينهم أطفال يعانون من جروح مروعة. حدث هذا على بعد مائة متر من هنا، كان يمكن أن يستغرق إحضارهم إلى المستشفى دقيقة واحدة، ولكن لم يسمح لأحد أن يتقدم من المصابين، وكان الموظفون الطبيون يشاهدون الناس وهم ينزفون حتى الموت في الشوارع. وأما المساعدون الطبيون، وهم يلبسون زيهم الأبيض الموحد، فقد كانت النار تطلق عليهم في كل مرة حاولوا فيها أن يرسلوا منقذين للمصابين. وفي هذا المستشفى، فقدنا مائة وستين من العاملين الطبيين، جرحى أو قتلى. وحاولنا أن نحصل لموظفينا على صدريات واقية ضد الرصاص فقيل لنا إن هذا غير مسموح به لكم، والعاملون الدوليون فقط هم الذين يستطيعون الحصول على مثل هذه الصدريات الواقية."

"أين ولدت؟"

"ولدت في خان يونس، في أقصى الجنوب من قطاع غزة. ويعيش هناك الآن أكثر من ستين ألف نسمة، في مخيم للاجئين محاط بالمستوطنين وبالدبابات. إنهم قلب المنطقة المركزية لمعاناتنا ولمقاومتنا، ولا يعرف العالم أي شيء عنهم. وأنا أريد أن أريك ذلك."

سقت السيارة مع منى إلى مفترق طرق يقف عنده صف يبلغ طوله ميلاً من المرور بانتظار نقطة تفتيش عسكرية على الطريق إلى خان يونس: شاحنات تحمل طعام حيوانات، وطحيناً وبرتقالاً، وسيارات أجرة فيها طالبات يحاولن الوصول إلى بيوتهن. وربما سيكون عليهن أن يمضين ليلة هناك: لم يتحرك شيء في الحر وفي الغبار. وقام سائق قلق يسوق شاحنة مليئة بالدجاج الحي بصب الماء على الأقفاص. وفي غضون ساعات قليلة، وما لم يبدأ الصف بالتحرك، فسوف يبدأ هذا السائق برمي الطيور النافقة على جانب الطريق.

وفي الأمام كان هناك مجموعة من أنوار المرور وتحصين عسكري. وحين ومض الضوء الأخضر، دام وميضة مدة لا تكفي إلا لمرور بضع سيارات. وأحياناً كانت تومض بانبثاقات تدوم لعشر ثوان. وحين تكون أنوار المرور معطلة، يطلق الجنود طلقات نارية في الهواء: طلقة للبدء بالحركة، وأخرى للوقوف. ولا يستطيع أي فلسطيني أن يمشي عبر الإشارة، ولا يسمح لأي سيارة أن تمر إذا كانت لا تحمل إلا راكباً منفرداً فيها، خوفاً، كما يقول الإسرائيليون، من هجوم انتحاري. ولذلك فإن الفتيان المحليين أجروا أنفسهم للسائقين المنفردين الذين كانوا يريدون أن يتجنوا إطلاق النار عليهم. وكانت الأولية تعطى لسيارات القمامة، وكان الناس يختبئون في القمامة، لم تكن الرمزية في هذا لتغيب عن أحد.

لماذا كان هناك هذا الانتظار والازدحام؟ لم تمر سيارة واحدة على الطريق المتقاطعة مع الطريق التي وقفنا في صفوفها طوال الساعة ونصف الساعة التي كنت فيها هناك. لقد كانت تلك الطريق "طريقاً أمنية" خاصة من أجل "المستوطنين" فقط، طريق لليهود فقط.

ومسحت آلات التصوير، المحمولة على السيارة، الأرض المحروثة المبوّرة المحيطة بالموقع والتي كانت، قبل وصول المستوطنين، مليئة بالبساتين والمحاصيل. وقالت لي منى: "انظر إلى ما وراء ذلك الخط من النخيل، وانظر إلى المكان الذي يقع فيه الجسر. ذلك هو المكان الذي كان يقوم فيه بيتي. لدي صور له، في اليوم التالي بعد أن جاءت الجرافات. لقد كان بيتي واحداً من ستة وعشرين منزلاً تم تدميرها في بداية الانتفاضة. لقد جاؤوا في الساعة الحادية عشر ليلاً واقتلعوا الأشجار ودمروا بئر مائنا، ثم دمروا بيتنا."

"ومن كان في البيت في ذلك الوقت؟"

"لم يكن فيه أحد. أمي كانت بعيدة في مدينة غزة تزور الأصدقاء. ولم يسمح لها بالعودة لاستنقاذ أي شيء. كل ذكريات حياتنا كانت هناك. طفولتي، وطفولة والديّ. وتاريخنا الذي يعود إلى مئات السنين..."

"وأين أسرتك الآن؟"

"أمي تسكن في كوخ بائس في مخيم اللاجئين في خان يونس. وأختي هناك أيضاً. وأنا لا أستطيع الحصول على تصريح لزيارتهما، ولا أن آتي بأختي المريضة مرضاً شديداً إلى المستشفى. إنني أفكر فيهما طوال الوقت، وأعتقد أن حياتي تقع تحت الهيمنة طوال الوقت. ولا أستطيع الذهاب ولو إلى القدس أو رام الله من دون تصريح يصدره جيش الاحتلال الإسرائيلي، وقد رفضوا منحي هذا التصريح طوال ثماني سنوات مستمرة حتى الآن. وفي أثناء ذلك الوقت، كان ابني يدرس في جامعة بيرزيت في الضفة الغربية. لقد كان على بعد ساعة ونصف من قيادة السيارة. ولكني لم أكن أستطيع أن أذهب لأراه."

"ما هو السبب الذي كان الإسرائيليون يبدونه لك؟"

"من عادتهم أن يقولوا: نحن غير مخولين أن نبدي لك السبب."

"هل اتهموك بكونك إرهابية؟"

"هم يعرفون أنني طبيبة! وفكر في الغضب الذي يسببه هذا. وفكر في الكيفية التي يشعر بها شبابنا. فإنك لكي تذهب إلى المدرسة تحتاج إلى إذن من الإسرائيليين. ولتمتلك بطاقة هوية فإنك تحتاج إلى إذنهم. ولتتزوج، فإنك تحتاج إلى إذنهم. إننا نعيش في سجن مفتوح – لا، إنه ليس مفتوحاً، لأنهم قسموا السجن إلى العديد من السجون الصغيرة. فالشوارع المسدودة تصير سجوناً، والبيوت تصير زنازين. إنها مثل المتاهة في المنام، متاهة لن تستطيع أن تصل فيها إلى المخرج.

"وبالنسبة إلى الإمدادات الطبية الأساسية الخاصة بالطوارىء فإننا انتظرناها خمسة أشهر، لكي تصل إلى هذا المستشفى. لقد وهبها لنا أصدقاء في مصر وخزنت في منطقة الحدود، ولم يسمح لتلك الإمدادات بالعبور إلا بعد أن تلفت في حرارة سيناء. وأنا أتحدث عن محاليل، وأدوية، ومهدئات ألم كنا بحاجة ماسة عاجلة إليها..."

"لماذا يوجد للعديد جداً من الأطفال بطون منتفخة؟"

"لأنهم جياع جوعاً يائساً. قبل هذا الحصار، حصار شارون، كانت الأسرة الفلسطينية باقية حية، لا بل حسنة الحال. إن من واجبي أن أتحدث إلى الناس لأكتشف من هم الذين يعانون، ويجب أن أكون صريحة معك: الجوع في كل مكان. العائلات لا ترى اللحم أبداً تقريباً، وإذا كانوا محظوظين، فسيحصلون على دجاجة واحدة كل أسبوعين. وهم لا يعرفون الفواكه، وهذه هي أرض الفواكه. الأطفال يحصلون على الشاي والخبز، وعلى شيء قليل غير هذا. وكلهم تقريباً يعانون فقر دم غذائياً. ومعظم مياه الصنبور تحت سيطرة المستوطنين وما يصل إلينا غير صالح للشرب."

في المجلة الطبية البريطانية في عدد تشرين الأول/أكتوبر من العام 2004، روى الدكتور ديريك سومرفيلد عن دراسة ميدانية عن غزة والضفة الغربية. وكتب يقول: طوال السنوات الأربع الماضية،

ثلثا الأطفال الذين بلغ عددهم 621 والذين قتلوا عند نقاط التفتيش، وفي الشارع، وفي طريقهم إلى المدرسة، وفي داخل بيوتهم، ماتوا من نيران أسلحة صغيرة، موجهة في أكثر من نصف الحالات إلى الرأس، والعنق والصدر – جرح من سلاح القناص. وثلثا الأطفال كانوا تحت سن الخامسة عشرة. ومن الواضح، أن الجنود مخولون بشكل منتظم عادي بإطلاق النار بقصد قتل الأطفال في مواقف يكون فيها التهديد في حده الأدنى أو لا يوجد فيها أي تهديد. إن هذه الإحصاءات تجتذب دعاية أقل إلى حد بعيد من التفجيرات الانتحارية.

واستشهد الدكتور المذكور بدراسة للبنك الدولي تظهر أن 60 بالمائة من السكان في غزة كانوا لا يلقون القوت إلا قليلاً جداً عند مستوى الفقر، واستشهد بدراسة أجرتها جامعة جونز هوبكنز وجامعة القدس وهي تظهر أن ربع الأطفال تحت سن الخامسة كانوا يعانون من سوء تغذية حاد أو مزمن. إن تماسك النظام الصحي الفلسطيني يجري تدميره." وكتب يقول:

إن الجدار [الذي يجري بناؤه حالياً عبر الضفة الغربية من قبل الإسرائيليين] سوف يعزل 97 مستوصفاً صحياً أولياً و11 مستشفى، عن السكان الذين

تخدمهم هذه المؤسسات الصحية. فمستشفى قلقيلية، وهو يخدم اللاجئين في الدرجة الأولى، قد شهد انخفاضاً قدره 40 بالمائة في حالات المتابعة، لأن المرضى لا يستطيعون أن يدخلوا المدينة... ونقطة التفتيش الموجودة عند المدخل المخصص لبعض القرى يغلق في الساعة السابعة مساء... وقد اقترب من البوابة رجل من قرية أحيطت بالسياج الآن بالقرب من قلقيلية وهو يحمل ابنته المريضة مرضاً شديداً بين ذراعيه، ورجا الجنود المناوبين أن يسمحوا له بالعبور ليستطيع أخذها إلى المستشفى. ولكن الجنود رفضوا، واضطر طبيب فلسطيني استدعي من الجهة الأخرى إلى أن يحاول إجراء الفحص الطبي وأن يعطي الطفلة حقنة من خلال أسلاك السياج.

وخلص الدكتور سومرفيلد في تقريره إلى السؤال: "كيف يتعين علينا أن نؤثر على هذه الحالة الباعثة على الصدمة، حالة هي بالنسبة إلى هذا الطبيب المولود في جنوب إفريقية، قد ذهبت في الإفراط في الشطط إلى أبعد مما كان في عصر التمييز العنصري؟"[74]

حين كنت في غزة، علقت إمدادات الطعام المقدمة من الأونروا إلى غالبية الأسر في مخيمات اللاجئين. وقد قال لي مسؤول: "إن المستودع الرئيسي فارغ." لقد لجأنا إلى الاتحاد الأوروبي من أجل تقديم الدعم المباشر، وإلا فلن يكون لدينا أي شيء في وقت قريب."

شركات المنافع الإسرائيلية، وأقل من سبعة آلاف "مستوطن" يهودي سيطروا، إلى أن تم إخلاء المستوطنين في أيلول/سبتمبر من العام 2005، على موارد غزة، وخصوصاً على توزيع مياهها. وفي درجات الحرارة القياسية في صيف العام 1995، قامت شركة المياه الوطنية الإسرائيلية ميركورت، بقطع إمدادات الماء عن معظم غزة لمدة عشرين يوماً لأن الناس لم يكونوا يملكون أي مال يسددون به فواتيرهم. وحرم ثمانية آلاف نسمة وهم سكان قرية العبيدية من الماء الجاري لمدة ثمانية عشر شهراً في حين كانت المستوطنات اليهودية المجاورة "تزدهر في الصحراء."[75]

وكانت مستوطنة غوش قطيف واحدة من عشر مستوطنات يهودية كانت تحيط بمخيم اللاجئين في خان يونس، وهو المخيم الذي لم تكن تستطيع الدكتورة الفرا أن تزور فيه أمها وأختها. وبعد حرب العام 1967، حين استولت إسرائيل على قطاع غزة، يقال إن موشي دايان كان قد وضع يده المفتوحة في الرمل وقال: "راحتي هي إسرائيل، وأصابعي عرب، يجب أن نسترجع الأصابع." وسواء أكانت هذه القصة موضع شك أم لا، فقد صارت هي المطلب المبتغى. وكان يقال إن دايان ليبرالي. وقد قال في محاضرة له في العام 1969: "إن القرى اليهودية بنيت في مكان هذه القرى العربية. لا بل إنكم لا تعرفون ولو أسماء هذه القرى العربية، وأنا لا ألومكم، نظراً إلى أن كتب الجغرافية لم تبق موجودة بعد الآن. وليست الكتب وحدها التي لا توجد فقط، بل إن القرى العربية ليست هناك أيضاً."[76]

وطوال عشر سنوات كانت غوش قطيف محاطة بسياج مكهرب، وكان هناك جدار مبني بناء جزئياً، وكانت خمس عشرة دبابة من الجيش متمركزة على منصة من الرمل ومتوجهة مباشرة إلى مخيم خان يونس. وكان الفلسطينيون الذين تقع بيوتهم في مواجهة المستوطنة قد اعتادوا أن يفتحوا نوافذهم في الصباح للرشاشات الثقيلة ولفوهات مدافع دبابات الجيش التي تربض على بعد 150 متراً. وعاش فلسطينيون آخرون فوق حطام بيوتهم المدمرة.

وقد كتب الصحافي الفلسطيني الأمريكي توفيق حداد في مجلة خلف الخطوط يقول: "ببساطة لا يكفي القول: إن إسرائيل تقصف خان يونس."

إن الجيش الإسرائيلي يستخدم الرشاشات الآلية الثقيلة التي تؤدي حين تطلق من مثل هذا القرب في المسافة إلى اختراق البيوت من خلال ألواح الإسبيستوس المهترئة والإسمنت المسلح الرخيص لبيوت اللاجئين التي بنتها مؤسسة إغاثة وتشغيل الفلسطينيين من الأمم المتحدة في أواخر الخمسينيات من 1950. وزيادة على ذلك، فإن إسرائيل تستخدم ذخيرة خطاطة حارقة تتسبب بإشعال الحرائق بعد أن يبدأ القصف. وفي إحدى المرات، اشتعلت النار في ثلاثين بيتاً مختلفاً في ليلة واحدة... وإضافة إلى ذلك، فإن القنابل التي تقذف إلى المخيم من دبابات الجيش المتمركزة

في غوش قطيف ومن قوارب الأسطول المتمركزة في البحر، ترسل مئات من قطع شظايا القذائف عند الانفجار وهي مسؤولة عن تشويه أو قتل كل من يوجد في منطقة نصف قطرها 30 متراً... وقد بدأت إسرائيل حديثاً باستخدام ذراع رافعة روبوتية تمتد إلى موقع يشرف على أزقة المخيم. وفي نهاية الامتداد الكامل لهذا الذراع يوجد معقل مدرع يتسع لثلاثة جنود إسرائيليين مجهزين بنيران مدفعية ثقيلة يستطيعون طلب قصفها فوق المخيم.[77]

موشيه دان، وهو دليل سياحي إسرائيلي أمريكي، وافق على أخذي إلى غوش قطيف. لبس قبعة كرة القاعدة (البيسبول) ونظارات طيار، وحمل مسدساً من عيار 0.45. ومع وجود موشيه على دفة القيادة كان يجري التلويح لنا عبر نقطة تفتيش عسكرية بعد نقطة تفتيش. وحين مررنا على عائلة فلسطينية على حمارها قال موشيه "عرب"، نطقها وكأنه يشير إلى الحيوانات المحلية للمنطقة.

وسألته: "لماذا تعتقد أن هذه الأرض متنازع عليها؟"

"بالدرجة الرئيسية لأن اليهود، الإسرائيليين، جاؤوا ليعيشوا هنا. والشيء المثير للسخرية هو أن العرب قد استفادوا فائدة هائلة من حقيقة هي أن اليهود قد بنوا قطاع غزة. وهناك رفاهية هائلة [في صفوف الفلسطينيين] نتيجة للاستيطان اليهودي... أنظر إلى هذا الجسر، هذا المعبر، القادم أمامنا. الآن هذا موضع جدال شديد..."

كنا نعبر تقاطع الطرق الذي كانت منى الفرا قد أخذتني إليه. ومن خلال ضباب الحرارة، كنت أستطيع أن أرى بصعوبة الصف الذي يمتد بلا نهاية من السيارات الفلسطينية، وهي في الأخاديد وفي الرمال، وهم يشاهدوننا ونحن نعبر. وتحت المعبر كان هناك أنقاض بيت عائلة منى الفرا.

"لماذا هو موضع جدل؟"

"هذا الطريق لا يمكن أن يستخدمه إلا اليهود."

"ولماذا؟"

"لكي نحمي المستوطنين من الإرهابيين. يجب عليهم أن يفصلوا المجتمعات، ليس لديهم أي خيار. انظر إلى هذه الحواجز. كانت هناك بيوت سابقاً.ولم يكن بدٌ من جرفها لإيقاف الإرهابيين."

"أليست هذه المستوطنات استفزازات، وقعت على أرض الفلسطينيين، وارتبطت بطرق لليهود فقط؟"

"حسناً، هذا الموقف حديث نسبياً. وهو موجود فقط منذ بدأ عرفات هجماته الإرهابية على اليهود. ولم يكن هناك في الحقيقة أي شيء نستطيع أن نفعله لمنعها، سوى أن نقصف المدن بالقنابل."

"ماذا كان سيحدث لو أن اليهود خرجوا منها؟"

"أعتقد، بالنسبة إلى تنشئة عائلاتهم، أن هذا واحد من أفضل الحلول لهم."

"كيف؟"

"إن التعاون الاقتصادي هو أفضل طريق لخلق السلام. وهذا ما هو جار هنا: التعاون الاقتصادي بين اليهود والعرب..."

وحين وقفنا بالسيارة عند بوابات غوش قطيف، قلت له: "موشيه، هناك الكثير من الناس الذين ينظرون نظرة غضب ويقفون من حولنا هنا بأسلحتهم: وهو نموذج مثير للاهتمام من التعاون الاقتصادي."

بدأ مستوطنان شابان بالصراخ علينا وهما يوجهان سلاحيهما الآليين نحونا. وقال موشيه: "هناك مشكلة صغيرة. ابق هادئاً."

"ماذا يقولون؟"

"انصرفوا بسرعة."

واستدعي، ديفيد ريشيه، المستوطن الذي كان قد وافق على أن يقابلنا، وبعد انتظار متوتر توتراً شديداً، وصل وتحدث مع الصارخين. وقال: "سق إلى الداخل بسرعة." وحين عبرنا كانت الوجوه مكفهرة عابسة.

بعد ذلك، تكشفت لنا بلاد أخرى. فرشاشات الماء انطلقت على المروج الخضراء الناضرة وأحواض الورد تفتحت صفاً بعد صف من أكواخ الضواحي، والعديد منها مزود ببرك السباحة. والأطفال الأصحاء يلعبون في شوارع هادئة، وهناك رجل يقوم بتشذيب سياجه، في حين كانت هناك امرأة تتنزه مع توأميها المحمولين في عربة أطفال. وأومأنا بالتحيات.

ديفيد ريشيه، رجل ذو وجه لطيف في الأربعينيات من عمره، قدمني إلى عائلته وإلى أصدقائه، الذين كانوا قد وضعوا شطائر وأباريق عصير البرتقال على طاولة طويلة. وكانت مودتهم خلابة، وقد أحببتهم. ثم تجول بي ليريني المكان.

"وقال ديفيد، وهو يمد يده ليتناول قبعة ليغطي بها هامة رأسه البيضاء الشاحبة اللون: "آه، شمس الشرق الأوسط!"

وقلت: "نحن كلانا أوروبي أشقر..."

وقال وهو يبتسم للمفارقة الساخرة: "أنا ولدت في حيفا."

"وهي مدينة عربية..."

"نعم، اليهود والعرب عاشوا هناك معاً."

"ولكن والديك جاءا من أوروبة."

"من أوروبة، نعم... ولكني نشأت مع العرب. وتستطيع أن تقول إنني كنت صديقاً مع العرب إلى أن حرك عرفات كل هذا الاضطراب." وبدا الأمر وكأن نكبة العام 1948 لم تحدث وكأن دايان لم يمدد يده في الرمل. عرفات، الشيطان المتجسد، قد محا كل ذلك، وأفسد العرب الوادعين، الذين كانوا سابقاً سعداء على حميرهم.

وحين كنا نمشي إلى جانب "جدار أمني" أعلى من طولنا بثلاثة أضعاف، مع الحرص على الإسراع بالمشي حين نمر أمام الفجوات الموجودة في الجدار، كان ديفيد ريشيه يكافح من أجل أن يجيب عن أسئلتي، وهو مذهول من إخفاقي في فهم نقطته

الثابتة في الإشارة إلى الكتاب المقدس. وقال: "بعد أن تفهم أن كل شيء يجري هنا اليوم هو أمر مقرر من قوة أكبر منا جميعاً، حينئذ سوف تفهم ما هو واضح."

"وما هو الواضح؟"

"حسناً، والداي جاءا من أوروبة، ولكنني هنا لأن هذا المكان هو مكاننا. هذا واضح. أنا لا أستطيع أن أعيد شيئاً ليس من شأني أن أعيده، ولا يستطيع أحد أن يعيده: لا الساسة، ولا البرلمان. إن حركتنا تعود إلى ثلاثة آلاف عام مضت حين جاء بنا موسى إلى هنا ونحن نملك حلم بناء الهيكل في القدس."

"أليس ذلك اعتقاداً دينياً؟"

"لا، إنه أقوى من الدين. إنه شيء أكبر بكثير. وأنا أعني، أن المشاعر ربما تكون هي نفس مشاعر الدين، ولكنه شيء نؤمن به. إن أطفالي يتعلمون أن يؤمنوا به. وعلى الجانب الآخر، فإن الفلسطينيين المتدينين يشعرون الشعور نفسه. اسأل جماعة حماس. إنني أفهم ما يقولونه. هم أيضاً يملكون مثل هذا الإيمان. ولكنها ليست في أيدينا، وليست في أيديهم. إنها أكبر من كل الناس الموجودين هنا."

"وأين ستنتهي إذا لم يكن هناك حل وسط ولا عدالة لشعب مظلوم؟ أهو النزاع الدائم؟"

"حسناً، الحياة مليئة بالنزاعات. ربما يكون ما أقوله شيئاً قوياً جداً. وأنا أعني لعبة يجب أن يكون الربح فيها من جانب مكافئاً للخسارة من الجانب الآخر، واحد لصفر. وسوف نقاتل. إنها إما نحن وإما هم. واحد لصفر، ونحن الذين سنربحها."

"ألا يعني ذلك أن جانباً واحداً يجب أن يسيطر على الآخر؟"

"أرجوك ألا تسألني عن السياسة."

"ولكن هذا كله يدور حول السياسة. فإذا كان يتعين علينا أن نتحدث عن أخذ الأراضي باسم دين، وإيمان، فذلك هو شكل متطرف من السياسة. أين ينتهي؟ هل تسير الطريق كلها إلى دمشق؟"

"حسناً، ذلك سؤال جيد. ولكن اسمع، نحن نبني بلداً يهودياً، كل البلد اليهودي هنا بالضبط. وذلك يشمل القدس. ونحن نريد أن نعطي أبناء عمومتنا، العرب، كل شيء، ولكننا لا نستطيع أن نعطيهم القدس. فلم يكن هنا أي بلد آخر في ثلاثة آلاف عام أبداً. كان هناك بلد واحد فقط، وهو البلد اليهودي. لم يكن للفلسطينيين أبداً أي بلد، صحيح؟ ولا كان للأتراك ولا للرومان."

"هل تعني فعلاً أن الفلسطينيين لم يكونوا هنا؟"

"أفراداً فقط. لم يكن هنا بلد: لا ملك، ولا سلطة. والحدود الحقيقية كانت مكتوبة في الكتاب المقدس. ليس هناك حدود أخرى."

"وماذا عن الأعداد الضخمة من الناس الذين لا يؤمنون بما هو مكتوب في الكتاب المقدس؟"

"حسناً، أنا مؤمن به، وأنا مسؤول عن رأيي فقط. وعلى كل حال، فالقرآن، أو أي كتاب إسلامي آخر لا يتحدث عن بلد هنا. الإرهابيون فقط هم الذين يزعمون أن لهم بلداً على الجانب الآخر. وبلدنا حرب ضدهم."

"هل اليهود إرهابيون، أيضاً؟"

"لا، حين تكون في قتال من أجل حقوق اليهود، فأنت لست مثل ذلك. إنها تختلف. نحن مختلفون."

وحين كنا نتحادث، كنا نستطيع أن نرى على مسافة منا منطقة تعرف باسم المواصي، وهناك تم الإغلاق على اثني عشر ألف فلسطيني إغلاقاً كاملاً بأسوار غوش قطيف. ليس هناك أي شيء مثل هذا في أي مكان في غزة، أو في فلسطين كلها في الحقيقة. لقد كان "معسكر اعتقال داخل معسكر اعتقال [من مخيم خان يونس]."[78]

كان هؤلاء هم الناس الذين تحدثت عنهم منى الفرا: "قلب المنطقة المركزية لمعاناتنا ولمقاومتنا. ولا يعرف العالم أي شيء عنهم." وقد أغلق على المواصي وعزلوا

عن العالم الخارجي. وطوال أشهر في بعض الأحيان، لا يسمح لأي سيارات أو عربات يد أن تدخل إلى المخيم أو تخرج منه. ولا يستطيع المقيمون أن يحضروا معهم إلى داخل المخيم إلا ما يستطيعون حمله بأيديهم فقط. وقد حظر الدخول على غير المقيمين، وعطلت المدارس والمستوصفات المحلية لأن المهنيين الوحيدين في غزة كانوا في أماكن أخرى. لا بل إن الموتى كانوا يحتاجون إلى ترخيص خاص لدفنهم في المقبرة الرئيسية في خان يونس.

في 15 كانون الثاني/يناير من العام 2001، بعد أن قتل مستوطن على يد المقاومة الشعبية – وهي مقاومة لا علاقة لها بالمواصي – عبر 150 مستوطناً السور وذهبوا إلى المخيم وشرعوا في حالة هيجان، يحرقون ويطلقون نيران أسلحتهم على داخل البيوت، والجنود الإسرائيليون يشاهدون ما يجري. وبعد ثلاثة أيام وزع في مخيم المواصي منشور كتب بلغة عربية ركيكة يقول: "عرب المواصي، احذروا اليهود وارحلوا إلى خان يونس." وكان هذا لمحة مما كان قد جرى في أثناء النكبة. وقد وجدت من الصعب أن أتخيل أن ديفيد ريشيه يفعل هذا.

وبعد ذلك الهياج، أمرت إدارة الممتلكات الحكومية عشرين عائلة بإخلاء بيوتهم استعداداً لتدميرها. وكان تدخل مجموعات حقوق الإنسان فقط هو الذي أوقف تدمير ثلاثة عشر بيتاً من تلك البيوت.[79]

وقدم الذين تعرضوا للتعذيب طلبات متكررة إلى الصليب الأحمر الدولي والمنظمات الأخرى لحقوق الإنسان لحمايتهم، ولكن من دون فائدة. وروت مجلة خلف الخطوط: "أخيراً، فإن اللجنة الدولية للتحقيق من أجل خروقات حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة التي رأستها الأمم المتحدة زارت خان يونس، وهي نفسها ... وقعت تحت إطلاق النار الإسرائيلية العسكرية التي أصابت خمسة أشخاص، وهو ما أجبر البعثة على التراجع الفوري."[80]

وحين كنت هناك، هدد شارون بمهاجمة غزة ليكون ذلك الهجوم جزءاً من "عملية الدرع الدفاعي". وقد بنى الناس أهرامات من الرمل في الشوارع، وكأن

ذلك سيوقف الدبابات. وصارت الصفوف التي تنتظر الماء النقي أطول. وكان الخوف مقنّعاً بالتظاهر بالشجاعة: بأطفال يتظاهرون بالشجاعة وهم يصوبون بنادقهم الكلاشينكوف الخشبية إلى السماء، والشباب يتبخترون بالسكاكين وقلة منهم بالمسدسات. وقد عرض محل للوازم الزواج ملصقاً لطائرة اف – 16 إسرائيلية وهي تتحطم مشتعلة بلهيب النار مع حامل البندقية الفلسطيني الأسطوري الذي أسقطها.

في مركز غزة المدينة مجموعة متنافرة من المباني التي ترتفع عالياً وكانت قد بنيت بمنح من الاتحاد الأوروبي قدمت إلى السلطة الفلسطينية في أثناء سنوات "العملية السلمية" عملية أوسلو. وكانت تلك المباني قد تداعت بالسرعة نفسها التي تلاشى بها الحلم بالاستقلال الذاتي الفلسطيني، الذي يؤدي إلى الاستقلال. واستخدمت مصعداً أخذني إلى شقة في الدور الثامن، شقة لمى الحوراني، وهي محامية فلسطينية نشأت لاجئة في بيروت وعادت إلى غزة لتتزوج. ووجدتها فرحة لأنها حامل بطفلها الأول بعد أربعة عشر عاماً، كما وجدتها مذعورة.

"يسألني الناس متى أتوقع مجيء الطفل، وأنا أقول: حسناً، إن الموضوع يتوقف على شارون. هل سيسمح لي أن أكمل حملي بسلام؟ إنه يسيطر على مخاوفي كذلك، فهو يصعّدها في الوقت الذي يريده. إن انتظار الغزو أسوأ من الغزو نفسه. في هذه المباني العالية، نحن هدف الطائرات اف – 16. فأنت تسمعها تطير منخفضة طوال الليل تماماً. وتسمعها قادمة وتنتظر لتسمع الصاروخ. وتسمعها وهي تدور ثانية، تبحث عن الهدف، مهما يكن هذا الهدف. وأول مرة قصفوا فيها غزة بالقنابل، بدأ كل الأطفال في مبنانا هذا بالبكاء. وانقطعت الكهرباء، وأضأنا الشموع وأنا غنيت للصغار."

"هل تعتقدين أن هذا الخوف يقارن مع الخوف من التفجير الانتحاري؟"

"إنه الشيء نفسه"

"كيف شعرت حين رأيت لأول مرة في التلفاز المذبحة التي سببها مفجر انتحاري فلسطيني في إسرائيل؟"

"لقد بكيت. رأيت أطفالاً ونساء أصيبوا إصابات مروعة. لقد كان من عادتي أن أهاتف أصدقائي في إسرائيل وأقول لهم بأنني كنت محتاجة إلى التحدث إلى يهودي بصراحة، لأشعر بأنني مازلت إنسانة: بأنني مازلت أمتلك المبادئ. أنا لا أوافق على حملة الانتحار، لا أخلاقياً ولا سياسياً. إن العمليات الانتحارية لا تساعد الفلسطينيين. ولكن رد فعلي الآن مختلف. إنني مازلت لا أتفق معهم، ولكنني لا أبكي هذه الأيام، لقد رأيت الكثير جداً في جانبنا."

"لماذا لا تبكين الآن على النساء والأطفال؟"

"طبعاً يجب ألا يقتلوا. ولكنني لا أبكي. هذا ما فعله بي الاحتلال، لا بل بنا جميعاً."

"هل سبق أن تحدثت إلى أصدقائك اليهود في إسرائيل عن المفارقات الساخرة – عن حقيقة أنهم هم أيضاً، قد جاؤوا من خلفية الإذلال، ومن تدميرات البيوت؟"

"نعم، أنا أتحدث معهم حول ذلك، ولكنهم حساسون جداً. ويقولون: من فضلك لا تقارني ذلك بالمحرقة. وأنا أقول: لماذا لا ينبغي لي أن أفعل ذلك؟ أنتم تفعلون الكثير من الأشياء نفسها التي سبق أن فعلت بكم... أشياء مروعة... حبسنا خلف الجدران، إجبارنا على الخروج. ولدينا هذا الأمر الآن في غزة. (الإغلاق) كما يسمونه. استمع إلى مسؤوليهم وتستطيع أن تسمع صدى تاريخهم الخاص. فهم يقولون: انظروا، نحن نسمح لهم بإمدادات الطعام، وبالأدوية... انظروا كيف نعاملهم معاملة حسنة. ذلك هو ما قاله هتلر للعالم. ولكنه لم يكن صحيحاً. والآن يقومون بعمل ما سبق أن عمله هتلر: إنهم يدمرون أرضنا، ويصادرون أملاكنا، ويحصروننا في مخيمات اعتقال، لا بل يختمون أرقاماً على أيدينا. إنهم هم، الذين كانوا ضحايا، صاروا الجناة. إنه لأمر غريب أن نرى ذلك. وأرجوك ألا تقول إنني معادية للسامية، وذلك لأنني أنا نفسي سامية، أيضاً. نحن، العرب، ساميون. ولو كان هتلر قد جاء إلى فلسطين، لكان قد فعل الشيء نفسه ضدنا."

"ما الذي يزعجك أكثر من كل شيء؟"

"الحقيقة التي هي أننا نحن منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1988، أخذنا المبادرة واعترفنا بإسرائيل، وبالفعل، قلنا إنهم يستطيعون أن يمتلكوا ثمانية وسبعين بالمائة من فلسطين. إن ثمانين بالمائة من الفلسطينيين ما زالوا يوافقون على ذلك الحل الوسط . وكل ما طلبناه هو أن يُعتَرف بنا أيضاً: أي، بأننا نحن كذلك، نستطيع أن نمتلك دولتنا على الاثنين والعشرين بالمائة المتبقية من الأرض. وفي إسرائيل، فإن أولئك الذين قالوا إنهم يؤمنون بالعدالة، وهم اليسار، لم يكونوا صرحاء أبداً مع الجمهور الإسرائيلي الذي استمر يتلقى التغذية بالدعاية التي تقول إننا لم نعترف بهم.

"وإلى هذا اليوم، فإن الإسرائيليين جهلة بالمهاودة الضخمة بالحل الوسط الذي قدمناه. وفي تلك الأيام، ركزت وسائل الإعلام على بضع عمليات خطف طائرات، مثلما هم الآن بالضبط يعطون الانطباع بأننا كلنا مفجرون انتحاريون. إنهم لا يشرحون أبداً الإحباط والإحساس بالخيانة الذي سبب هذه الأشياء. من ذا الذين سبق له أن أشار إلى القناصة الإسرائيليين، في الانتفاضة الأولى، حين لم يكن المهاجمون الانتحاريون معروفين بعد، وكان القناصة يطلقون النار على رؤوس الأطفال الذين كانوا يرمون الحجارة فقط؟ هذا الانحياز لجانب واحد يقلقني قلقاً عميقاً. إذا ذهبتُ إلى أوروبة، فأنا أحتاج إلى ساعات وساعات لإقناع الناس بموقفنا، ولكن الإسرائيلي يستطيع أن يفعل الأمر نفسه في خمس دقائق."

"ماذا تطلبين من العالم الخارجي؟"

"أنا أطلب فقط أن تتم المحافظة على القانون الدولي، وأن نسترجع أراضينا المحتلة: وهي الاثنان والعشرون بالمائة. تلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ شعبي من إسرائيل وإنقاذ أبنائه من الذهاب إلى المتطرفين... لقد مضى علي وأنا أتعالج للحصول على طفل مدة أربعة عشر عاماً الآن، وأنا لا أريد لطفلي أن يرغب في الذهاب إلى مستوطنة يهودية ويقتل الناس وهو في سن العاشرة. ذلك هو ما يحدث

الآن. أطفالنا، وهم في سن العاشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة يريدون أن يقتلوا أنفسهم. عليك أن ترى الأمهات يبكين."

"ماذا ستعلمين طفلك؟"

"سوف أعلم طفلي ألا يكره اليهود، ولكن، مثل كل الفلسطينيين، سوف أحتاج إلى المساعدة من العالم."

إن أربعين بالمائة من سكان غزة هم تحت سن الخامسة عشرة. إنهم من سماهم محمد جار الله "أطفال الغبار": أي، أطفال استحوذ عليهم الفقر وأطفال العائلات الكبيرة التي تبدو قادرة على تحمل المشاق تحملاً فوق العادة، بعد أن بقيت على قيد الحياة بشكل ما بعد سنواتها القليلة الأولى. إن طفولتهم الرائعة، ومشاكستهم، وقهقهاتهم، وجاذبيهم، تناقض كابوسهم. إن 60 بالمائة من ضحايا الانتفاضة من الأطفال أطلقت النار عليهم وهم في طريقهم إلى المدرسة، أو وهم في بيوتهم، أو وهم يلعبون، وليس هذا وحسب، ولكن العنف يدمر نفوسهم الداخلية.

الدكتور خالد دحلان، طبيب نفسي، وهو يرأس واحداً من مشاريع صحة المجتمع العديدة للأطفال في غزة، وقد أراني نتائج دراسة حديثة، وقال لي: "إن الإحصاء الذي أجده شخصياً إحصاء لا يمكن احتماله، وهو أن 99.4 بالمائة من الأطفال الذين درسناهم في المخيمات، تعرضوا للهجوم المستمر، وعانوا جرحاً نفسياً جسدياً. وبعد أن تنظر إلى معدلات التعرض للجرح النفسي الجسدي، تعرف السبب وهو: إن 99.2 بالمائة من بيوت مجموعة الدراسة قد قصفت بالقنابل، و97.5 بالمائة تعرضوا للغاز المسيل للدموع، و96.6 بالمائة شاهدوا إطلاق نار، و95.8 بالمائة شاهدوا قصف قنابل وجنائز، وربع المجموعة تقريباً رأوا أفراد الأسرة يجرحون أو يقتلون، وأكثر من ثلث المجموعة رأوا جيرانهم يقتلون أو يجرحون."

ويظهر بحث آخر أن كل الأطفال الفلسطينيين تقريباً يعانون من كوابيس لا ترحم ومن "مخاوف ليلية"، ومن أرق وبوال ليلي. ويواجه الأطفال الصغار الوقوع في التضارب الذي ينتج من أن عليهم أن يعالجوا هذه الظروف. فمن جهة، هم يحلمون بأن

يصيروا أطباء وممرضين وممرضات "لكي يستطيعوا مساعدة الآخرين"، ثم يلحق بهذا الحلم رؤية كارثية عن أنفسهم بوصفهم الجيل التالي من المفجرين الانتحاريين.

وهم يعانون هذا بشكل ثابت بعد كل هجوم من الإسرائيليين حين تتحول أحاديث الملاعب إلى أحاديث عن "الشهادة" وذلك لأن "المدارس نفسها ليست آمنة." وبالنسبة إلى بعض الفتيان، لم يبق أبطالهم الآن هم لاعبي كرة القدم، بل خليط من "الشهداء" الفلسطينيين، لا بل من العدو أيضاً "لأن الجنود الإسرائيليين هم أقوى الجنود ويمتلكون الطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي."[81]

ودعاني الدكتور دحلان إلى أن أحضر في واحدة من عياداته. وجلس ثلاثون صبياً راوحت أعمارهم بين العاشرة والثالثة عشرة على طاولات مرتبة مثل حدوة الحصان. وقال: "كل واحد فيهم مجروح نفسياً وجسدياً. وكل واحد منهم يعاني القلق الحاد أو الاكتئاب أو إحساساً بالضياع والعزلة. والعديد منهم يعاني من الآلام الثلاثة كلها. والنشاط اليوم هو الرسم الحر. سوف يضعون على الورق ما يدور في أذهانهم. لم أعطهم أي موضوع: لا اقتراحات. وغرضي من ذلك أن أساعدهم على التخلص من مخاوفهم."

بعد نصف ساعة، أنتج الأطفال صوراً عن الموضوع نفسه: العنف والحرب. لقد صوروا طائرات اف – 16 الإسرائيلية وهي تقصف المدارس، وصوروا الدبابات وهي تطلق النار على الأطفال، وعلى سيارات الإسعاف عند نقاط التفتيش والنساء وهن يذرفن جداول من الدموع. صفحة أحد الصبية كانت ملونة كلها بالأسود ما عدا خربشة في منتصف الصفحة ملونة بلون الدم الأحمر القاني. وقال الدكتور دحلان: "نحن، الفلسطينيين الكبار، نشعر في الغالب أن كل هذا العنف والخوف قد سحب منا قدرتنا وحقنا في حماية شبابنا الذين لا يثقون بنا بعد الآن لنعتني بهم: لنحافظ عليهم آمنين."

سقت سيارتي راجعاً على طول طريق الشاطئ، وتوقفت قرب نقطة تفتيش تشرف على مستوطنة نتساريم. إنها قطاع كالشبح، وترتفع فيها واجهات عملاقة

كأسنان المنشار لا فائدة منها لمبان غير مكتملة البناء دمرها قصف بالقنابل مطوقة برمل أبيض عصفت به الريح. والعديد من هذه المباني كان مخططاً لها أن تكون فنادق للسياح. وتشرف على البحر مدينة ملاه، ومتنزه ترفيهي، وهما فارغان ومدمران. أما معداتهما الملونة بألوان زاهية، فقد اخترقتها الثقوب التي أحدثها الرصاص، وهي معلقة تعليقاً خطراً على مفصلاتها الصدئة، وتترنح متمايلة تصلصل في الهواء. وكان دولاب الكراسي الدوار يميل وكأنه يسقط سقوطاً بطيئاً، وسيارات المراوغة الصغيرة ترقد منسوفة بالقنابل على جانبها، ومحاطة بطلقات حية عيار 50، وكل طلقة تحتوي على متفجرات كافية لإفناء شكل إنساني. وكانت مدينة الملاهي هي الوحيدة من نوعها في غزة، وصارت مكاناً من أخطر الأمكنة في غزة.

ومن خلف مبنى من الطوب يسمي نفسه (قاعة أفراح الزواج) برز رجل طويل، ونحيل، وخائف. كان هذا هو الحارس، وليد الديراوي. وحين كنا نتكلم، كان باستمرار ينظر خلفي، نحو الطريق. وقال لي من خلال مترجمي: "على الرغم من أنني أشعر بأمان أكبر حين أكون واقفاً مع أجنبي، فقد يجري إطلاق النار علينا." وقال إن مدينة الملاهي كانت قد بنيت في العام 1997، وكانت محبوبة شعبياً جداً إلى درجة جعلت السلطة الفلسطينية تعتقد أنها كانت تستطيع أن تستعيد استثمارها لمبلغ مليون دولار. وفي العطلات، اعتادت العائلات أن تأتي عند شروق الشمس وتصطف بكل ابتهاج.

وقال: "في أحد الأيام في صيف العام 2000، أز الرصاص ضد ركوب الدوامة الموجودة هناك. وصرخ الأطفال وكان هناك ذعر. وأز المزيد من الرصاص، وجرح العديد من الناس. وتلك كانت نهايتها. وبعد ذلك، استخدم المستوطنون في نتساريم، والجنود، هذا المكان ميدان رماية. ولمدة أسبوع أو أسبوعين، كان الأزواج ما زالوا يأتون ليتزوجوا في قاعة الأفراح، ولكن القناصين كانوا ينتظرونهم، ثم يفتحون النار."

حين كنت أغادر غزة، كوفئت بمنظر أعلام فلسطينية تلوح من داخل المجمعات المحاطة بالجدران من مخيم جباليا. وكما قيل لي إن الأطفال هم

المسؤولون عن هذا. فلا أحد يطلب منهم أن يفعلوا ذلك. وهم يصنعون أعمدة الأعلام من عصي مربوطة معاً وخطوط الطاقة الكهربائية المرتخية ثم يتسلق واحد أو اثنان فوق جدار ويمسكان العلم بينهما، بصمت. وهم يفعلون ذلك حين يكون هناك أجانب في المكان، وهم يعتقدون أنهم يستطيعون بذلك أن يخبروا العالم.

دوري غولد مستشار كبير للشؤون الخارجية لرؤساء وزارات إسرائيل، ولأرييل شارون على نحو بارز، وهو سفير سابق في الأمم المتحدة، ويدير "مركز تفكير" في القدس، هو مركز العلاقات العامة، وهو يسافر كثيراً إلى الولايات المتحدة، وفيها يروج لإسرائيل في جولات لإلقاء المحاضرات. ومشاهدو التلفاز في كل أنحاء العالم يعرفونه بوصفه واحداً من متحدثي إسرائيل الحكوميين الفصحاء، ذوي اللهجة الأمريكية.

وقد رتبت أن أجري معه مقابلة في مكتبه المطل على شارع معرش بالأشجار الكثيرة الأوراق من دارات خاصة (فلل) مطلية باللون الكلسي الأبيض في الضاحية. وهو شخص ودود وكأنه عم أو خال، وواثق من نفسه مع امتلاكه لحجج منقحة تدرب عليها. وبدأ بالحديث عن إسرائيل حديثاً كثيراً بوصفها جزءاً من "الحلف الديمقراطي الغربي"، وتقف كتفاً لكتف مع شركاء متساوين في "حرب على الإرهاب". وقارن ما سماه "مصاعب إسرائيل الإقليمية" بصعوبات بريطانيا في أثناء حرب القصف الجوي الخاطف.

وقلت له: "إن إسرائيل هي رابع أقوى أمة عسكرية في العالم، وبالتأكيد هي قوة إقليمية كبيرة. وهي تستطيع أن تعالج أي تهديد عسكري. أليس السبب الحقيقي لعدم الأمن لدى شعبكم هو الحقيقة المتمثلة في أنكم تديرون احتلالاً عسكرياً يمسك بشعب آخر أسيراً؟"

وأجاب: "تلك الحجة لا تصمد. نعم، من البداية حتى العام 1993، كان الفلسطينيون تحتنا. ولكننا بعدئذ سحبنا حكومتنا العسكرية وأسسنا سلطة فلسطينية تحت ياسر عرفات. ولم يبق الفلسطينيون بعد ذلك تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي، على الرغم من أن الصحيح هو أنهم لم يمتلكوا دولة

مستقلة كذلك. والسبب الوحيد الذي عادت القوات الإسرائيلية من أجله إلى الضفة الغربية في أيلول/سبتمبر من العام 2000 كان هو الانتفاضة التي فرضها عرفات علينا. لو لم يكن هناك انتفاضة لكان هناك حكم ذاتي فلسطيني كامل."

"كثيرون من الفلسطينيين لا يريدون نوع الحكم الذاتي الذي كان مستعمرة إسرائيلية بحكم الأمر الواقع. لقد كانوا يعرفون أن كل ما كان على إسرائيل أن تفعله هو أن تحرك دباباتها متدفقة عبر الخط الأخضر. وهكذا ألم يكن التخويف من الاحتلال موجوداً دائماً؟"

"الاحتلال العسكري معرف تعريفاً دقيقاً جداً في معاهدات لاهاي في العام 1907. وهو يعني أنك تمتلك حكومة عسكرية... وأحد الأسباب التي تجعل الفلسطينيين يتحدثون عن كونهم تحت احتلال هو أن عليهم أن يواجهوا تهمة أنهم منغمسون في الإرهاب. حين يحزم شاب فلسطيني الديناميت حول نفسه ويدخل إلى مقهى إسرائيلي مزدحم بالناس، ويقتل ثلاثين من الشباب الإسرائيلي الذي لم يبلغ العشرين من عمره، فإن هذا يسمى إرهاباً. ولا نحتاج إلى أن تكون محامياً لتفهم ذلك."

"وماذا عن الإرهاب الإسرائيلي؟"

"يجب عليك أن تكون حريصاً مع اللغة... الإرهاب يعني استهداف المدنيين عمداً. وذلك هو ما يدور حوله إرهاب الجيش الجمهوري الإيرلندي في شمال إيرلندا. وهذا ما حدث في 11 أيلول/سبتمبر العام 20001، وذلك هو ما يحدث في المدارس الإسرائيلية، ومحلات المقاهي، والأسواق. إن إسرائيل لا تنغمس في الإرهاب. إسرائيل تستهدف، إلى أقصى ما تستطيع من قدرة، المنظمات الفلسطينية الإرهابية."

"وكيف تفسر قيام قناص إسرائيلي بإطلاق النار عمداً على سيدة مسنة تعرج على عصا، وهي تحاول أن تصل إلى المستشفى لتلقي العلاج الكيماوي؟ سنبقى هنا طوال اليوم نستشهد بأمثلة أخرى. أليس هذا إرهاباً؟"

"من سوء الحظ، هناك في كل نوع من أنواع الحرب، حالات من المدنيين الذين يقتلون عرضاً. الإرهاب يعني وضع شعيرة التسديد في بندقية القناص على المدني بشكل متعمد."

"وذلك هو ما وصفته قبل قليل."

"لا. أستطيع أن أقول لك إن هذا لم يحدث."

"هذا حدث فعلاً في اليوم السابق للأمس أمام صحافة العالم. ألا ترى، تلك هي المشكلة مع حجتك أن الإرهاب موجود فقط في جانب واحد. ألا ترى ذلك؟"

"إذا كنت تخلط الإرهاب مع مكافحة الإرهاب، وإذا كنت تخلق نوعاً من التشويش الأخلاقي، وإذا كنت قد أصبت بالارتباك وتقول: حسناً، فإن الأمريكيين والبريطانيين العاملين في أفغانستان الذين يؤذون مدنياً أفغانياً هم منغمسون في الإرهاب، فإنك، آنئذ ستسحب البساط من تحت كل التحالف الغربي."

"أي بساط؟"

"بساط المحافظة على مجتمعاتنا آمنة."

"ألست مدركاً أن كثيرين من الناس في البلدان الغربية ينظرون إلى قصف المدنيين الأفغان بالقنابل، أي مدنيين، بوصفه إرهاباً."

"يا سيد بلجر، هل ترى أن قصف مدنيين بالقنابل عرضاً دون قصد على يد البريطانيين إرهاباً؟"

"عرضاً من دون قصد؟"

"أنا قلت: – عرضاً من دون قصد– لأنني لا أعتقد أن القوات البريطانية يمكن أن تضع المدنيين في الخطر عن عمد أبداً."

"ذلك اعتقاد مؤثر جداً."

obeikandl.com

"مؤثر؟"

"لبريطانيا سجل إمبراطوري ضار في الشرق الأوسط، وفي بلدك أنت، نعم أنا أنظر إلى قصف المدنيين بالقنابل بوصفه إرهاباً."

"يا سيد بلجر، إن السبب الذي يجعلني لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث هو أن الحكومة البريطانية ديمقراطية ويتعين أن تكون موضع مساءلة."

"هل لي أن أسأل كيف تبررون سلوك جنودكم العنيف عند نقاط التفتيش، وهي المكان الذي يذلون فيه الناس مراراً، الإذلال نفسه الذي عاناه اليهود؟"

"أنا لا أعرف إلى أي شيء تشير..."

"لقد أجريت مقابلة مع امرأة لم يسمح لها أن تعبر نقطة التفتيش إلى المستشفى وفقدت مولودها نتيجة لذلك. وهناك العديد من حالات مشابهة."

"لقد رأيت بعيني شخصياً الصليب الأحمر الفلسطيني (هكذا !) وسيارة الإسعاف تحمل مفجراً انتحارياً شاباً مع حزام انتحاري حول جسده."

"أين؟"

"لقد أشرت إليه كتابة. أرجو أن تدقق في السجل."

(دققت في السجل. في آب/أغسطس من العام 2001، قال دوري غولد لوكالة الصحافة الفرنسية إن أربعة فلسطينيين قفزوا من سيارة إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني في نابلس بعد إطلاق النار على القوات الإسرائيلية. وقد أطلقت النار على الأربعة وقتلوا. وبعد ذلك، وفي اعتراف غير معتاد، قال متحدث باسم الجيش إن الرجال لم يكونوا في أي مكان قريب من سيارة الإسعاف. "كان هناك غلطة في التقرير الميداني عن الحادثة."[82])

وقلت له: "إن حالات الوفيات في نقاط التفتيش تم التحقق منها من قبل منظمات حقوق الإنسان الإسرائيلية المحترمة، مثل أطباء من أجل حقوق الإنسان."

"سوف تنتهي نقاط التفتيش في اللحظة التي ينتهي فيها الإرهاب."

obeikandi.com

"يجب أن تكون مدركاً أن الأكثرية الساحقة من المدنيين الذين قتلوا هي من الفلسطينيين، وأن ستين بالمائة قتلوا في أماكن عملهم، أو في مدارسهم أو في بيوتهم."

"لم أطلع على البيانات. وهناك العديد من المنظمات غير الحكومية التي تعمل هنا، وبعضها ممول من كل أنواع المنظمات الغريبة."

"ولكن هناك نمط واضح في أعمال القتل هذه، وهي لو كانت تحدث للإسرائيليين لكنت دعوتها إرهاباً."

"أنت تعرف، أن ونستون تشرتشل كان من عادته أن يقول: لا تخلطوا حارق المباني عمداً مع الإطفائي. ياسر عرفات فرض حرب إرهاب على إسرائيل، وإسرائيل قامت برد الفعل. ويجب عليك أن تفهم أن هناك معركة دعاية مستمرة، وهي لا تقل شدة عن الحرب الفعلية على الأرض. نحن جميعاً علينا مسؤولية بأن نكون مدركين للأكاذيب."

"هل العفو الدولية تكذب؟"

"ماذا تعني؟"

"العفو الدولية وثّقت استخدام إسرائيل التعذيب المنهجي والحصانة الكاملة تقريباً لأعمال القتل غير القانونية للفلسطينيين، والعقاب الجماعي، واستخدام الدروع البشرية، وسجن الناس من دون محاكمة، وهدم البيوت. فهل هم ببساطة مشتغلون بالدعاية؟"

"حسناً، يجب أن تُفحص كل حالة، ويجب علينا أن نرد."

"ولكن هل فهموها خطأ؟"

"أنا أعرف عن إساءات مفزعة لحقوق الإنسان في الجانب الفلسطيني..."

"هل فهموها خطأ عن إسرائيل؟"

"لدينا نظام من القوانين. ولدينا نظام عدالة ومحكمة عالية، وهي تحمي الفلسطينيين..."

obeikandl.com

"وإذاً فلماذا يوجد مثل هذا العدد الكبير من الفلسطينيين في السجن من دون أن يحاكموا من أجل أي جريمة؟"

"أنا أقول لك، نحن نطبق القانون في هذا البلد."

"إن المادة 49 من ميثاق جنيف تنص على عدم السماح لأي دولة بأن تضع مواطنيها الخاصين بها بصفة مستوطنين في الأراضي المحتلة. وذلك هو قانون الأمم، وإسرائيل تحده. أليس ذلك صحيحاً؟"

"المادة 49 من ميثاق جنيف كان المقصود منها أن تتعامل مع حالات مثل الاحتلال النازي لأوروربة الشرقية، وليس حالة إسرائيل التي تسمح للإسرائيليين ولليهود [الآخرين] أن يعيشوا في الضفة الغربية."

"يا سيد غولد، لا يمكن لذلك أن يكون صحيحاً، لأن مجلس الأمن في الأمم المتحدة في شهر تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2000 دعا إسرائيل إلى احترام ميثاق جنيف، وكان التصويت بالإجماع."

"لدينا نزاع على هذه المسألة. نحن نقول إنه تشويهٌ أن تطبق ميثاق جنيف، وهو الذي عالج أحوال النازيين في أوروبة، على الحالة هنا."

"في الجمعية العامة للأمم المتحدة، كان التصويت ضد إسرائيل في هذه المسألة مائة وخمسين إلى اثنين. فهل العالم كله على خطأ؟"

"انظر إلى ما تصوت الجمعية العامة ضده! لقد وصل الأمر بها إلى أن صوتت ضد إجراءات الولايات المتحدة في برنامج دفاعي صاروخي!"

"هل تقول إن ذلك كان حمقاً؟"

"ما أقوله هو أن الجمعية العامة تضم بلاداً من حركة عدم الانحياز، وهكذا فأنت تشارك في موقفك مع زيمبابوي، وكوبا، واليمن."

"تلك ثلاث دول فقط، وأنا لا أشارك في موقفي مع أي شخص. الأمم المتحدة هي الحكم في القانون الدولي، وإسرائيل عضو في الأمم المتحدة وقد قدم مجلس

الأمن مائتين وخمسة وأربعين قراراً حول سلوك إسرائيل ورصيد الجمعية العامة أكثر من خمسمائة قرار. أليس هذا سجلاً مثيراً للعجب؟"

"هنا هو السؤال الحقيقي: أهذا الانتباه من مجلس الأمن ومن الجمعية العامة لإسرائيل يعكس فداحة المشكلة هنا، أم يعكس تسييس نظام الأمم المتحدة؟"

"أليس يعكس، بناء على سجل إسرائيل، أنكم دولة مارقة؟"

"الجواب هو هذا: هل اجتمع الموقعون على ميثاق جنيف الرابع في السابق مطلقاً لمناقشة الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا، وغزو السوفيت لأفغانستان، وغزو فيتنام لكمبوديا؟"

"هل تقول إن العالم تعصب ضد إسرائيل؟"

"أنا أبحث عن معيار عادل. إذا كان الموقعون على ميثاق جنيف يتجاهلون مثل هذا الكثير ويجتمعون فقط حين تبني إسرائيل أنظمة الحكم المشتركة في القدس الشرقية، فإن هناك شيئاً ما خطأ في شغل المجتمع الدولي."

"متى ستوافق إسرائيل على المفاوضات مع الفلسطينيين، لا من أجل إلحاق استعماري بل من أجل وطن يكون آمناً ومستقلاً مثل إسرائيل نفسها؟"

"رئيس الوزراء شارون قال إنه سيقبل دولة فلسطينية."

"أي نوع من الدولة الفلسطينية؟"

"هل تريد من إسرائيل أن تسلم بشروط تلك المفاوضات في هذه المقابلة العامة؟ أوليس من الأفضل الاتفاق على المبدأ العام؟"

"وماذا عن المبدأ العام لدولة مستقلة مثل استقلال إسرائيل؟"

"لا نحتاج إلى خيط من الصفات..."

"كيف يمكن أن نبدأ مفاوضات إذا كان مبدأ الدولة المستقلة ليس مشروطاً مسبقاً؟"

"يجب ألا يكون للمفاوضات شروط مسبقة."

"ولكنكم تملكون من قبل الآن شروطاً مسبقة. ماذا عن كل تلك الدبابات وطائرات اف–16 المصوبة إلى فلسطين؟"

"وماذا عن الفلسطينيين؟"

"نعم، لديهم متفجرون انتحاريون، ويمتلكون بعض الأسلحة الصغيرة والأطفال منهم لديهم حذافة حجارة..."

"لا، لا، لا، لا. ذلك ليس مقارنة مناسبة. الفلسطينيون يمتلكون تحالفاً مع الدول العربية."

"هل أستطيع أن أسألك سؤالاً: هل سبق لك أن رأيت أنت بنفسك وخبرت كيف هي الحياة في مخيم لاجئين؟"

"مطلقاً. وكان يجب أن تكون المخيمات قد فككت منذ سنوات، وخصوصاً في سورية، والأردن، وأن يدخل اللاجئون تلك المجتمعات. لقد أخذنا لاجئين من كل أنحاء العالم العربي: لاجئين يهوداً. ودمجناهم في المجتمع الإسرائيلي."

"ما الذي يعطي أمريكياً أو روسياً الحق في الاستيطان هنا في الوقت الذي لا يكاد فيه الفلسطيني يملك أي حقوق على الإطلاق؟"

"بعد قرون من معاداة السامية ضد الشعب اليهودي، اعترف المجتمع الدولي أن اليهود يملكون حقاً في دولة يهودية في هذه الأرض، أرضهم الوطنية التاريخية."

"ولكن ألم تقم إسرائيل على حساب الشعب الفلسطيني الذي لا علاقة له بالتقاليد المسيحية في القرون الوسطى، وهي مصدر معاداة السامية، والذي لم يكن جزءاً من المشروع النازي؟ لقد كانوا ببساطة هم السكان الوطنيين."

"لقد تم التوصل إلى صفقة بعد الحرب العالمية الأولى وتأكدت على أيدي قوات الحلفاء، وهي أن اليهود سيمتلكون دولتهم في هذه المنطقة وأن العرب سيكونون أحراراً من نير الإمبراطورية العثمانية. والعرب حصلوا على دولهم. وكل ما نريده نحن هو دولة ديمقراطية يهودية تعيش في سلام."

"ولكن هل ينبغي على الشعب الفلسطيني أن يدفع الثمن لهذه الصفقة بفقدانه الشيء نفسه الذي طلبه الشعب اليهودي – الوطن؟"

"نحن مستعدون لإنشاء كيان حكم ذاتي فلسطيني. قد يسميها بعضهم دولة فلسطينية..."

"يا سيد غولد، أنت استخدمت كلمات (نحن مستعدون لإنشاء) أي حق تملكونه أنتم لإنشاء وطن أناس آخرين؟"

"نحن يجري الطلب منا أن نفاوض على ذلك. ونحن مستعدون أن نعمل إسهاما."

"في اليوم السابق للأمس، قابلت والد الفتاة الإسرائيلية ذات الأربعة عشر عاماً التي قتلت على يد مفجر انتحاري. وقال لي إن الطريقة الوحيدة لإيقاف العنف هي أن نتعامل مع السبب، لا مع الأعراض. والسبب هو نهاية للاحتلال. هل لديه فكرة جوهرية؟"

"لديه فكرة جوهرية وهي أنه محق في إثارتها. ولكن معظم الإسرائيليين صوتوا لرئيس مجلس الوزراء شارون ونحن نملك حكومة وحدة تضم تسعين بالمائة من الجسم الإسرائيلي السياسي. ونحن نعتقد أن الأعراض تهم فعلاً: إن الإرهاب يجب أن يمحى. ليس هناك أي ظلامة، ولا أي إحساس بالحرمان يمكن أن تتوضح عن طريق حزم الديناميت على شاب فلسطيني... لا شيء يبرر ذلك."

"حين قام أولئك الإسرائيليون المشهورون، مثل رئيس الوزراء الراحل مناحيم بيغن بارتكاب أعمال الإرهاب قبل ميلاد إسرائيل مباشرة – مثل نسف فندق الملك داوود وقتل واحد وتسعين شخصاً – كان يمكنك أن تقول الشيء نفسه عنهم. ما الفرق؟"

"نحن نملك الآن فهماً جديداً. بعد 11 أيلول/سبتمبر، تلقى العالم دعوة لليقظة. يجب علينا أن نزيل هذه البلوى [الإرهاب] عن الأرض، سواء أكنت تتحدث عن الصراع هنا أو في شمال إيرلندا أو سريلانكا: وهي الأماكن التي استخدم فيها الإرهاب. والديمقراطيات الثلاث [إسرائيل، والولايات المتحدة، وبريطانيا] يجب أن تقدم التزاماً كونياً لاستئصال هذا التهديد من العالم. نقطة انتهى."

"وهل يشمل ذلك إرهاب الدولة؟"

"ليس من حق أي بلد أن يستهدف المدنيين. نحن نخاطر بحياة الجنود الإسرائيليين في عمليات مكافحة التمرد، وذلك من أجل ألا نتسبب بأي ضرر، وبأي خسائر في الجانب الفلسطيني. لقد مات ثلاثة وعشرون إسرائيلياً في جنين لكي يستطيع المدنيون الفلسطينيون أن يعيشوا."

"هل أنت جاد؟"

"كل العسكريين اليوم يستدعون الضربات الجوية، ويستخدمون المدفعية، ويستخدمون كل أنواع الأسلحة التي نرفض نحن أن نستخدمها. في العملية التي جرت في جنين، اتخذنا القرار بإرسال القوات البرية. لقد مات جنودنا من أجل ألا نستدعي الضربات الجوية..."

"ذلك بيان لا يصدق. فالعسكريون الإسرائيليون هاجموا مخيم اللاجئين في جنين بالدبابات، وبالطائرات، وبالجرافات المدرعة ودمروا البيوت وهدموها والناس في داخلها."

"أنا أكرر: الإسرائيليون ماتوا من أجل أن يستطيع المدنيون الفلسطينيون أن يعيشوا."

الدبابات تدمر بيوت الفلسطينيين لكي يشعر الإسرائيليون بالأمن، وأرض المعارض ترجع أصداء صوت التدريب على إطلاق النار على الأهداف بدل أن ترجع أصوات الضحكات، ورشاشات المياه تروي المروج في القلاع اليهودية في الوقت الذي تصل فيه مخيمات اللاجئين إلى الجفاف: وأنا خبرت الكثير من مثل هذه التغييرات المذهلة التي تعكس النظام الطبيعي في رحلاتي إلى الضفة الغربية وغزة لأخرج فيلماً وثائقياً بعنوان: فلسطين ما زالت هي القضية. وكان هو الفيلم الثاني الذي يحمل هذا العنوان، وكنت قد أخرجت الفيلم الأول قبل ثمانية وعشرين عاماً.

الحقيقة نفسها حول فلسطين قد تم قلبها لمدة طويلة جداً، وعلى نحو ناجح جداً، على أيدي أصدقاء إسرائيل في الحكومات الأجنبية والمروجين لإسرائيل في

وسائل الإعلام وفي كل مكان آخر إلى الدرجة التي تقابل بها أي محاولة لكسر ما سماه إدوارد سعيد "المحرم الأخير" بتلطيخ السمعة وتزييف المعلومات.

الفيلم الثاني – الذي تشكل مقابلاته وبحوثه الأساس الذي قام عليه هذا الفصل – عُرض في أيلول/ سبتمبر من العام 2002 في شبكة تلفزة مستقلة في بريطانيا وفي بلدان أخرى. وهو يعرض النزاع في فلسطين بوصفه ظلماً تاريخياً، وهذا هو المحرم.

في البث الصحافي الإذاعي والتلفازي في بريطانيا وفي البلدان الغربية الأخرى، يُقدّم الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، في أحسن أحواله، بوصفه "نزاعاً" بين فئتين متحاربتين، وكل منهما ملك نفس الحق والخطأ والمسؤولية. ويسمى تيم ليوللين، وهو مراسل سابق في الشرق الأوسط لمؤسسة الإذاعة البريطانية، يسمي هذا الموقف "استبداد التساوي الزائف."[83] وتغطية وسائل الإعلام، مع بعض الاستثناءات، هي تنويعة من أنواع دعاية الدولة في كل من إسرائيل ومن مسانديها الغربيين معاً.

وقد أظهر الفيلم الثاني: فلسطين ما زالت هي القضية الإذلال اليومي للفلسطينيين وتشويه السمعة الثقافية لهم، وهم الضحايا، وصور الفيلم الإسرائيليين والفلسطينيين الذين لم يكونوا منمّطين بلا أصالة، وعبروا عن رغبة في العدالة والمصالحة. ودعي القادة الإسرائيليون للمساءلة مثلما دعي ياسر عرفات، وقد وصفت عملية أوسلو "العملية السلمية" بأنها "حل استعماري كلاسيكي حصل فيه عرفات ونخبته على بهارج السلطة وامتيازاتها في الوقت الذي حصلت فيه جماهير الشعب على ما سماها صحافي إسرائيلي على حكم ذاتي لمعسكر أسرى حرب."

وقد شغل الموقف الرسمي الإسرائيلي جزءاً مهما من الفيلم، وأطول مقابلة كانت مع دوري غولد، المتحدث نيابة عن حكومة شارون. وأخيراً، خضعت فعلياً كل كلمة وخضع كل إطار لفحص قانوني شرعي من أجل الدقة وضمان الامتثال للتوازن ولتعليمات الإنصاف معاً في قانون البث في المملكة المتحدة.

وقد بُث الفيلم في الساعة الحادية عشرة من الليل حين كان معظم الجمهور المحتمل لمشاهدته قد أوى إلى فراشه. ومع ذلك، فإن مليوناً ونصف المليون من الناس قد شاهدوا الفيلم، وكثيرون آخرون قرؤوا عنه. ومن بين أكثر من خمسين فيلماً أخرجتها، فإن الفيلمين اللذين أخرجتهما عن كامبوديا وتيمور الشرقية هما فقط اللذان ولدا رد فعل أكبر من رد الفعل الذي ولده هذا الفيلم. وقد وصلت عدة آلاف من رسائل البريد الإليكتروني (إيميلات) إلى تلفاز كارلتون، وشركة إنتاج التلفزة المستقلة. ومعظم تلك الرسائل التي كانت منتقدة للفيلم جاءت من الولايات المتحدة ومن بلاد أخرى لم يعرض الفيلم فيها. وبعض الرسائل كانت مسيئة إلى درجة غير معتادة. فقد وصِفتُ بشكل متنوع بأني "مضطرب عقلياً شيطاني" وأني "مورّد للبغضاء وللشر" وإني "معاد للسامية من أخطر نوع." وكان يعتبر قتلي أو قتل أسرتي "ليس فكرة سيئة."

وكانت كثرة من الرسائل الإليكترونية متشابهة تشابهاً ملحوظاً، لأنها جاءت من خلال منظمة في نيويورك تسمى بعث التقارير الأمينة. وكان تحقيق قامت به صحيفة الغارديان في شهر شباط/فبراير العام 2001، وتابع حملة عنيفة مشابهة من الاتهامات عن "الانحياز المعادي للسامية" ضد مراسلة الغارديان في الشرق الأوسط سوزان غولدينبرغ (وهي نفسها يهودية)، قد كشف أن منظمة التقارير الأمينة، ولها مشتركون في كل أنحاء العالم، كانت هي المحرك الأول لهذا السخط المفرط النشاط الذي يبدو أنه يميز جماعة الضغط (اللوبي) الموالية لإسرائيل. وهي التي كتبت الشكاوي، ووفرت المادة النوعية، وعلمت الناس كيف يهاجمون العمل "المعادي لليهود" حسب زعمهم وهم لم يروه.

وتدير منظمةَ التقارير الأمينة جماعةٌ يهودية متعصبة تسمى إيش ها توراة (نار التوراة)، وهي كما قالت الغارديان،

تقف على حافة الطرافة في الألوان في بهرجتها. أسسها الحاخام نوح وينبيرغ، الذي يشتكي من أن اليهودية تخسر"20.000 طفل في كل عام" نتيجة الزواج من خارج اليهود، وقد اخترعت منظمة إيش المواعيد السريعة – جلسات لمدة ثماني دقائق

في مقهى لمساعدة سكان نيويورك على إيجاد شركاء يهود مناسبين. وهم يعتبرون على نطاق واسع متطرفين من الجناح اليميني. وهم بالتأكيد ليسوا أناساً مخولين بإزعاج وسائل الإعلام إلى ما يسمونه "الموضوعية."[84]

ولم تقف الحملة الصاخبة في الإنترنت. وجاءت رسالة من هيئة ممثلي اليهود البريطانيين، التي وصفت نفسها بأنها "الهيئة الممثلة للمجتمع اليهودي البريطاني"، وكررت الكلمات التي زودتها بها منظمة التقارير الأمينة. العاملون على مقاسم الهاتف في كارلتون والضباط المناوبون أسيء لهم بكل قوة وهددوا، وأنا تلقيت عدداً من التهديدات بالموت في البيت. وكانت الأصوات الغاضبة تحمل في الغالب اللهجة الإنجليزية للطبقة الوسطى. وقال طبيب يهودي في شيشير "لقد تُركتُ أتعجب كم تحول من ثروة عرفات الشخصية إلى ثروة جون بلجر الشخصية."[85]

وتدخلت المهزلة، فقد هاجم مايكل غرين، وهو الرئيس اليهودي لكارلتون، فيلم شركته الخاصة هجوماً علنياً. وفي مقابلة له مع جويش كرونيكل وصف فيلم فلسطين ما زالت هي القضية بأنه "مأساة بالنسبة إلى إسرائيل بخصوص الدقة" وقال إنه "عزم على التأكد من أنه سيكون هناك برنامج يبين وجهة النظر الإسرائيلية." وبعد أن كان قد نُبه من السفارة الإسرائيلية ومن الأصدقاء المحافظين لإسرائيل، فقد كان رأى الفيلم قبل أن يبث وكان "غير سعيد به للغاية."[86] ولم يكن غرين قد أخبر أي شخص في إدارة الإنتاج في كارلتون بأنه كان قد شاهد الفيلم أو أنه كان غير سعيد به. ولا يملك هو الحق في أن يأمر ببرنامج "موازن" – فتلك كانت مسؤولية شبكة التلفزة المستقلة.

وفي اليوم التالي، وتحت عنوان رئيسي "كارلتون يوبخ رئيسه بسبب مهاجمته الفيلم الوثائقي." نشرت الإندبندنت بياناً من مدير كارلتون للبرامج القائمة على الحقائق، وهو ريتشارد كليّمو، ومن المنتج التنفيذي، وهو بولي بايد. ويقول البيان: "كارلتون يقف مع برنامج جون بلجر ومع دقته،"

إن الفيلم سار عبر القنوات العادية للتدقيق المتعلق بالتحرير قبل الإكمال ووافق المديرون التنفيذيون الكبار في كل من كارلتون ومركز شبكة التلفزة المستقلة على بثه. إن رأي مايكل غرين يخصه هو. وليس له أي ارتباط في البرنامج أو في بثه. ولقد سعى الفيلم إلى أن يعطي صوتاً للناس في المجتمعات الفلسطينية والإسرائيلية وهو الصوت الذي نادراً ما سمع.[87]

وكتبت إلى غرين أطلب منه تفسيراً لهجومه على فيلمي. ولم أتسلم أي جواب. وفي اليوم الذي ظهرت فيه مقابلته في جويش كرونيكل، قام مساعده بزيارة إلى المكتب الصحفي في الشركة ووجه الموظفين إلى أن يقولوا إن كارلتون لم يتلق إلا الشكاوي حول الفيلم. وحين أشير إلى أن نصف ردود الفعل على الأقل أثنت على الفيلم، كان جواب المساعد أن غرين طلب من الشركة أن تقول إن ردود الفعل كلها كانت سلبية. وحين سئل عن نواحي عدم الدقة التي حددها غرين أجاب "كان هذا رأي مايكل."[88]

كانت موظفة الصحافة المسؤولة عن العناية بأفلامي هي لوريل كيوغ، وهي مواطنة من مواطني، وهي مشاكسة مليئة بالنشاط. وقد استدعاها غرين إلى مكتبه في موقع السلطة في مبنى اتصالات كارلتون في نايتسبريدج. وطلب منها الرئيس أن يعرف "ما هي الجرائد التي تقرئينها؟" (وهو ما فسرته لوريل بوصفه سؤالاً عن انتمائها السياسي) "ما رأيك في بلجر؟ أليس صحيحاً أن الجميع معادون لهذا الفيلم؟" وأجابته بأن هذا لم يكن صحيحاً وطلبت منه أن يقيم الدليل على تهمه، وهو ما رفض أن يفعله. واكتشفت لاحقاً وثيقة من الحكومة الإسرائيلية على مكتبها مع ملاحظة إطراء وتمنيات من غرين. وكانت صارخة في نغمتها، وتعاملت مع العموميات.

وكان تدخل غرين، بوصفه رئيس البث العام، أمراً غير مسبوق في التلفزة البريطانية، وكان له أثر فوري. فقد تلقيت المزيد من التهديدات الشخصية، ومن جملتها تهديدات بالموت. فرئيس كارلتون لم يوفر الذخيرة الملتهبة فقط لحملة منسقة غير مبررة ضد الفيلم، بل عمل على التأكد من أن رد الفعل الإيجابي من

الجمهور قد جرى التعتيم عليه وحجبه. وبعد أسبوعين، فإن أكثرية من الرسائل الإليكترونية (الإيميلات) والرسائل والاتصالات الهاتفية التي تم استقبالها أثنت على شبكة التلفزة المستقلة لأنها عرضت الفيلم، وما اشتكت إلا من الساعة المتأخرة لبثه فقط.

وكان هذا قد شمل رد فعل يهودي ذا مغزى. وقد كتبت الوكيلة الأدبية المتميزة في لندن جاكلين كورن (وهي وكيلتي) إلى غرين:

إن كون الناس يكتبون رسائل بغيضة بشكل مثير للاشمئزاز ورسائل تهديد إلى جون بلجر، سواء من اليهود ومن الأصوليين المسيحيين من الغرب الأوسط، ويتحدثون في مكالمات هاتفية مهددة ومسيئة لأعضاء هيئة الموظفين في كارلتون، يبدو لي شراً تماماً وهو بعيد للغاية عن أي حس أخلاقي مثل أي شيء يمكن أن يكون... لقد حان الوقت الذي يتوقف فيه يهود الشتات عن كونهم دفاعيين على هذا النحو... إنني أجد موقفك في هذا موقفاً غير عادي.[89]

ووصف الكاتب المسرحي هارولد بنتر الفيلم بأنه، "قوي ومتوازن، وضروري، على حد سواء." أما الممثلة ماريام كارلين فكتبت إلى الغارديان: "هل هيئة الممثلين والسفارة الإسرائيلية رأت من البرنامج فقط الأجزاء التي جعلتهم يشعرون، بحق تماماً، شعوراً غير مريح؟ نحن نعتقد أن ثلاثة من الإسرائيليين الذين أجريت معهم المقابلات مثلوا أفضل ما في إسرائيل، الإنسانية، واليهودية الحقيقية."[90] وكتب المستشاران التاريخيان للفيلم، وهما إلان بابي من جامعة حيفا ونور مصالحة، مدير دراسات الأرض المقدسة في جامعة سرّي، إن الفيلم كان "دقيقاً، ومتوازناً ومثيراً للإعجاب."[91]

وكُلفت أنا من الغارديان أن أصف الحدث في مقالة أدبية لصفحات الرأي فيها. وفي اليوم التالي بعد أن نشرت هذه المقالة، ومن دون مشاورتي أو تحذيري، نشرت الصحيفة كلمة تهاجم كلاً من الفيلم والمقالة تحت عنوان رئيسي: "مذبحة الحقيقة." وكان المؤلف هو ستيفن بوللارد، وهو صيهوني نشيط لاذع.[92] إلى مثل هذا الحد تبلغ قوة "جماعة الضغط" الموالية لإسرائيل – والتي، كما يجب أن

أضيف، ليست هي "المؤامرة اليهودية" التي يستخدمها الصهاينة في الغالب لاستدعاء معاداة السامية التي تصرف الانتباه.

وبعد أن تلقت هيئة التلفزة المستقلة نفسها 116 شكوى، وهذه الهيئة هي المجموعة الرسمية التي تنظم التلفزة التجارية في بريطانيا، قررت أن تحقق – على الرغم من أن 553 مشاهداً كتبوا إلى الهيئة يثنون على الفيلم. ومن بين جميع أفلامي، ومن جملتها الأفلام التي جرّت علي النار من الحكومات، كان فيلم فلسطين مازالت هي القضية هو الوحيد الذي أخضع لمساءلة رسمية. وطوال شهرين، أُرهقنا أنا ومنتج الفيلم كريس مارتن، وكبير محامي كارلتون ستيفن رودلف بإعداد دفاع يعادل حجم أطروحة علمية.[93]

ورددنا بالتفصيل على التهمة التي تقول إن الفيلم كان "انتقائياً للحقائق [التاريخية]، إن لم يكن مشوهاً لها." ووافقنا على أن الفيلم تحدى ما هو معروف "بالنسخة الإسرائيلية والوطنية للتاريخ" وهذا التحدي هو الذي دعم إبراز الظلم الكبير الذي وقع على الفلسطينيين. وربما كان هذا هو أهم جزء من الفيلم، لأنه ما من دولة حديثة أخرى سبق أن تأسست عن طريق تجريد شعب كامل من ملكيته وطرده من وطنه.

وتركزت الاعتراضات على تعليقي في قولي إنه في الأشهر والأسابيع السابقة لتأسيس إسرائيل في أيار/مايو 1948، كان الفلسطينيون "قد طردوا من بيوتهم أو أجبروا على الفرار في موجة من الخوف والرعب." وهذا القول ناقض تناقضاً مباشراً "النسخة الوطنية"، وهي التي أنكرت أنه كان هناك طرد كامل وزعمت أن الفلسطينيين فروا من بيوتهم بناء على حث الزعماء العرب لهم.[94]

لقد عالجتُ هذا في الصفحات السابقة، معترفاً بعمل مجموعة من المؤرخين الإسرائيليين "الجدد"، الذي فتحوا المحفوظات العبرية وملفات الحكومة التي كان يتعذر الحصول عليها في السابق. وتكشف هذه أن هرب الفلسطينيين كان نتيجة لتكتيك خطّط له ونفذه جيش الهاغاناه (الجيش اليهودي) قبل أن تقوم الدول

العربية برد فعلها على إعلان دولة إسرائيل – وخصوصاً "الخطة د"، التي هدفت إلى السيطرة على المدن الفلسطينية الرئيسية. وقد كتب آي شلايم، أستاذ العلاقات الدولية في أوكسفورد ومؤلف كتاب الجدار الحديدي، يقول: "إن المجتمع الفلسطيني تفتت تحت تأثير الهجوم العسكري اليهودي الذي كان جارياً في نيسان/ابريل [1948]... بالأمر بالاستيلاء على المدن العربية وتدمير القرى، [الخطة د] سمحت وبررت معاً الطرد باستخدام القوة ضد المدنيين العرب."[95]

وقد قدمنا الدليل على أن 369 مدينة وقرية فلسطينية أخليت من سكانها أو دمرت قبل إعلان استقلال إسرائيل.[96] وبالرجوع إلى السجلات الرسمية، وثق المؤرخ الإسرائيلي بني موريس مذبحة بعد مذبحة للمدنيين الفلسطينيين في أماكن مثل دير ياسين، والدوايمة، وعيلبون، والجش، والصفصاف، ومجد الكروم، وحولة وسعسع، واللد. وفي اللد والرملة، وهي مشهد أعمال الطرد الكلية، تشير الروايات الرسمية المصرح بها إلى "تطهير عرقي". وكان لواء يهودي قد أمر بما يلي: "يتعين تسهيل الهروب للنساء، وللشيوخ وللأطفال من مدينة الرملة. وأما الذكور فيجب أن يحتجزوا."[97] وحين وصل إلى المشهد، ديفيد بن غوربون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، سأله الجنرال آلون: "ماذا سيفعل بالعرب؟" قام بن غوربون، كما كتب موريس، "بعمل إشارة طرد قوية بيده وقال: اطردوهم." إن الأمر بطرد جميع السكان "من دون الانتباه إلى العمر" كان قد وقعه إسحق رابين، وهو رئيس وزراء مستقبلي.[98]

وقد روى موريس مشاعر الذنب التي عبر عنها بعضهم عن هذه الإستراتيجية. وقال القائد المشارك لحزب مابام مئير ياعاري:

كثيرون منا يفقدون صورتهم [الإنسانية]... كم هو من السهل أن يتكلموا كيف يكون ممكناً ومسموحاً أن نأخذ النساء، والأطفال والشيوخ وأن نملأ الطرقات بهم لأن هذه هي أوامر الإستراتيجية. وهذا، نحن نقول... هو الذي يتذكر من هم الذين استخدموا هذه الوسائل ضد شعبنا في أثناء الحرب [العالمية الثانية]... نحن فزعون.[99]

وفي فلسطين مازالت هي القضية، قلت: "إن الفلسطينيين، في العام 1967، هربوا من بيوتهم مرة أخرى في أثناء حرب الأيام الستة حين احتلت إسرائيل النسبة المتبقية من فلسطين وهي 22 بالمائة، واصفاً هذا بأنه عمل من أعمال الدفاع عن النفس." وقد وصف هذا القول من المشتكين بأنه خطأ ومؤذ. وقالوا: إن كون العرب هم الذين هاجموا أولاً "هي مسألة من السجل التاريخي." وعلى الرغم من أن الدعاية الصهيونية قد ضخمت مسألة ستمائة ألف يهودي وقفوا في القتال ضد خمس دول عربية،• فإن السجل التاريخي يقدم تفسيراً مختلفاً اختلافاً شديداً. إن القوات المسلحة للجامعة العربية، التي تمثل خمس دول، كانت قد حشدت عشرين ألف رجل لا غير. وأثقل دروع معهم تكونت من اثنتين وعشرين دبابة خفيفة وعشر طائرات قديمة من نوع سبيتفاير. وكان لدى اليهود اثنان وخمسون ألفاً من القوات المقاتلة العاملة، والكثير منهم معبأ ومتحرك جداً، مع حرس محلي بقوة ثلاثين ألف رجل، إضافة إلى الأرغون وهي مجموعة "عمليات خاصة" أو مجموعة إرهابية.

وقد كتب المؤرخ باتريك سيل أن الجيش المصري كان أبعد ما يكون عن أن يمثل تهديداً، مع وجود معظمه معوقاً في مستنقع الحرب الأهلية في اليمن. والرئيس ناصر، مع كل صخبه، لم تكن لديه أي رغبة في غزو إسرائيل. وكان هذا واضحاً من قراره بأن يرسل فرقتين فقط إلى داخل سيناء، وهو يعرف أنهما لن تكونا نداً للإسرائيليين. لقد كان القول إن العرب هاجموا أولاً أسطورة . وفي الوقت الذي كان هناك هجوم واحد من الأردن فإن هذا الهجوم جاء بعد "ما دعي عملاً إسرائيلياً (استباقياً)."[100]

وعلى الحدود السورية، كانت إسرائيل هي التي غزت المنطقة المنزوعة السلاح. وقد كتب آفي شلايم في كتابه الجدار الحديدي، أن الحرب كانت قد "أُطلقت بإصدار [إسرائيل] سلسلة من التهديدات... لاحتلال دمشق وإطاحة نظام الحكم

•المقصود في حرب العام 1948 (امترجم)

السوري."[101] وكتب وليام ل. كليفلاند في كتابه المدرسي الممتاز، التاريخ الحديث للشرق الأوسط، أن "أسطورة إسرائيل العاجزة عن الدفاع عن نفسها والوليدة الجديدة التي تواجه الانقضاض عليها من حشود من الجنود العرب لا تتناسب مع الحقيقة."[102]

في كانون الثاني/يناير من العام 2003، أعلنت هيئة التلفزة المستقلة أنها رفضت كل الشكاوي ضد فيلم فلسطين ما زالت هي القضية. وأثنت الهيئة على "الاستقامة الصحفية" التي تمتع بها الفيلم، وعلى "الشمول والحجيّة الموثوقة" لمصادره التاريخية والمصادر الواقعية الأخرى.[103]

وكان الحكم علامة بارزة، لا تقبل فقط أن فيلماً وثائقياً عن عدالة القضية الفلسطينية كان "متوازنا" ضمن شروط قانون البث، بل تقبل أيضاً أنه سعى إلى إصلاح عدم التوازن الكلي في التغطية التلفازية لفلسطين وإسرائيل.

وكان من جملة ما تقدمنا به دراسة أعدتها مجموعة إعلامية طليعية من جامعة غلاسغو، التي توصلت في ختامها إلى أن نقص الفهم لدى الجمهور للأحداث في فلسطين ولجذور الأحداث كان في الواقع نقصاً تزيده رواية التلفزة للأخبار اختلاطاً: وبكلمات أخرى، كلما ازداد الناس مشاهدة للتلفزة قل ما عرفوه.

إن المشاهدين نادراً ما يحاطون علماً بأن الفلسطينيين كانوا ضحايا لاحتلال عسكري غير قانوني، ولم يكن تعبير "الأراضي المحتلة" يُشرح أبداً تقريباً. إن 9 بالمائة فقط من الشباب الذين أجرى معهم الباحثون مقابلات كانوا يعرفون أن الإسرائيليين كانوا هم القوة المحتلة وأن المستوطنين غير الشرعيين كانوا يهوداً، وكان كثيرون يعتقدون أن هؤلاء المستوطنين هم من الفلسطينيين. ووجد الباحثون أن الاستخدام الانتقائي للغة من قبل المذيعين كان حاسماً في إدامة هذا الاضطراب والجهل.

وعلى سبيل المثال، فإن كلمات مثل "القتل"، و"الفظاعة" و"القتل الوحشي بدم بارد" لم تكن تستخدم إلا لوصف موتى الإسرائيليين فقط. وقد كتب الأستاذ الدكتور غريغ فيلو: "إن المدى الذي تبلغه بعض الصحافة في تبني وجهة النظر الإسرائيلية يمكن أن يرى لو أن التصريحات معكوسة ومُثّلت وكأنها أعمال

فلسطينية. [فنحن] لم نجد أي تقارير تنص على أن هجمات الفلسطينيين كانت رداً على قتل المقاومين الذين يقاومون احتلالاً غير قانوني." وتوصلت الدراسة في الختام إلى أن الأخبار في التلفزة البريطانية عكست "انحيازاً ساحقاً نحو سياسات دولة إسرائيل."[104] لقد كانت لمحة من الحقيقة ولمحة تبين السبب الذي يستمر من أجله الظلم في فلسطين.

ويقول تيم ليويللين، وهو مراسل سابق لهيئة الإذاعة البريطانية في الشرق الأوسط، إن الهيئة تخضع لضغط "لا يلين" من إسرائيل وأصدقائها. وإدارة الهيئة تتعرض "بالتناوب للثرثرة معها وإزعاجها" من "سفارة ماهرة ومن العديدين من أصدقاء إسرائيل المؤثرين والمنظمين تنظيماً جيداً." وهذا "منتج، خصوصاً الآن والاتهامات بمعاداة السامية يمكن أن تكون موضع الاستخدام على نطاق واسع." وهو يصف اتجاهاً ثقافياً مطبوعاً في غرف بث الأخبار، يُستغل بسهولة، لكي يُرى العالم على أساس (هم) و(نحن)... فالمجزرة في محلات تسوق تجاري هي نوعاً ما أكثر استفزازاً أو تأثيراً من حيث الأخبار من القنبلة التي تدمر الشقق السكنية الرثة في حي عربي مكتظ قذر. والكلمات التي يستخدمها المذيعون مراراً وتكراراً لشرح تلك الصور تقف في طريقها، وكأن ذلك يحصل لمحاولة منعها أو تخفيفها، بدلاً من الإخبار عن الرعب الذي تمثله الصور.[105]

في اليوم التالي بعد أن عدت من فلسطين، شاهدت على هيئة الإذاعة البريطانية الرئيسية تقريراً من غزة، التي كانت قد هوجمت بالمقاتلات الإسرائيلية اف 16 والطائرات العمودية المسلحة. وشملت الإصابات أطفالاً من ثلاث عائلات. وكان مراسل الهيئة، وهو يقف في الحطام الملطخ بالدم لشقة سكنية، قد وصف الهجوم بوصفه "حرب إسرائيل على الإرهاب". ولم ترن في صوته أي مفارقة ساخرة وهو يقلب الدليل الموجود حوله هو.

وبعد ذلك بقليل، بثت سلسلة مراسل من هيئة الإذاعة البريطانية تقريراً حول حصار كنيسة المهد في بيت لحم، التي كان قد لجأ إليها عدة مئات من المقاتلين الفلسطينيين. وبدأ الراوي بالقول: "إن الإسرائيليين كانوا مصممين على عدم

الإضرار بالمبنى. وقد أبعدت الصحافة من ميدان المذود، ولكن سمح لنا بالبقاء ومراقبة العملية الإسرائيلية." ومع عدم تفسير هذا الامتياز في الوصول، قدم الفيلم نجمه، وهو عقيد إسرائيلي كان قد "ضمن المعالجة الطبية لأي شخص مجروح." وتحدث العقيد بلغة إنجليزية سلسلة وظهر وهو يرسل تحية بروح مرحة في هاتفه الجوال إلى أصدقاء له في لندن.

ومن دون أي دليل أو تحد، وصف الفلسطينيين الموجودين في داخل الكنيسة بأنهم "قتلة" و"إرهابيون". وحقه المقرر في "اعتقال" الأجانب المحتجبين سلمياً الذين كانوا في الكنيسة أيضاً لم يستدع أي تساؤل من منتج هيئة الإذاعة البريطانية الموجود مع المراسل. وحين غابت الشمس خلف شكل العقيد اللطيف أعطي العقيد الطيب الكلمة الأخيرة في الفيلم. فقال: "القضايا" القائمة بين الإسرائيليين والفلسطينيين "كانت وجهات نظر شخصية."

وحين كشفت كلمات الشكر والإقرار بالفضل للمسهمين في الفيلم أن الفيلم كان قد أخرج بالفعل بجهود شركة إنتاج إسرائيلية، هاتفت فيونا ميرتش، المنتج التنفيذي لسلسلة مراسل. وأكدت لي بأنه كان هناك منتج من هيئة الإذاعة البريطانية في الموقع. وقالت: لو أنه كان قد سأل "أسئلة صحافية حقيقية" لما كانت الشركة الإسرائيلية، إسرائيل غولدفشت برودكشنز، قد كسبت "ثقة" الجيش الإسرائيلي. وقالت كانت تلك هي طريقة "طر على الجدار". وكان [الفيلم] يكسر نمطاً ثابتاً، لقد كان يدور حول رجل طيب، محترم."

وسألتها لماذا لم تجر أي إشارة إلى الاحتلال غير القانوني لبيت لحم وبقية الأراضي المحتلة؟ ولماذا لم تجر مقابلة أي فلسطيني؟ فقالت كان يجب علي أن أكون قد شاهدت فيلماً سابقاً من مراسل، "وكان فيه فلسطينيون". من المستحيل أن نتخيل أن هيئة الإذاعة البريطانية تستخدم شركة إنتاج فلسطينية لعمل فيلم يكسر النمط الثابت ويظهر"الرجال الطيبين، المحترمين" الذين كانوا يدافعون عن أرض وطنهم ضد محتلين متوحشين في الغالب.[106]

وليس معنى هذا أن نوحي أن هيئة الإذاعة البريطانية لم تنظر أبداً نظرة نقدية إلى إسرائيل. فتقارير جيرمي باون من لبنان المحتل من إسرائيل تأتي إلى الفكر. (واللازمة المتكررة من الحكومة الإسرائيلية هي أن الهيئة "منحازة" ضدهم انحيازاً دائماً.) ولكن هذه استثناءات، وهي تصير أندر فأندر. في العام 2001، فحصت نسخة جريئة من بانوراما القسم الموثق توثيقاً جيداً الذي لعبه شارون، وهو وزير للدفاع، في المجازر التي وقعت في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في لبنان في العام 1982. وكان رد الفعل الإسرائيلي غضباً مفرطاً، شمل تهديدات بالعمل القانوني، وكله لم يصل إلى أي شيء، ربما باستثناء التأثير الضخم على مديري هيئة الإذاعة البريطانية، ولكن لم يتم إنتاج أي برنامج مكافئ منذ إنتاجه.

أورلا غورين، وهي مراسلة لهيئة الإذاعة البريطانية، ذات سمعة استقلالية بوصفها لا تخاف، وصريحة لا تنحاز، وقعت تحت التدقيق الشديد من الإسرائيليين. ومن وقت إلى آخر، أظهرت أورلا غورين المعاناة الحقيقية للفلسطينيين. ومثلها مثل مراسلة الغارديان سوزان غولدينبيرغ، فإنها تستقبل سيلاً من بريد البغضاء وتستقبل هيئة الإذاعة البريطانية شكاوى "رسمية" في كل مرة كانت تقاريرها توحي بأن الفلسطينيين كانوا ضحايا للاحتلال. وكان لافتاً للنظر أن نراقب التغير التدريجي في مقاربتها للقضية.

في 12 أيار/مايو من العام 2005، شاهدت تقريرها عن يوم الاستقلال الإسرائيلي، وهو بالنسبة إلى الفلسطينيين، يوم للحزن لأنهم يتذكرون أهوال النكبة. ولكن المراسلة لم تقدم أي ذكر للنكبة ولم تقابل أحداً من الفلسطينيين. وقد أعطي المستوطنون اليهود غير القانونيين في غزة وقتاً كريماً على الهواء يشتكون فيه من "رمينا إلى خارج بيوتنا" إذا استمر آرييل شارون ومضى قدماً في خطته لأجل "فك الارتباط" مع غزة. وقالت عن صور في ختام التقرير عن شارون وهو يبكي من حادثة تلويح بالعلم: "إن الأسابيع القليلة التالية ستكون صدمة نفسية وعقلية بالنسبة له [شارون] ولشعبه."

إلى هذا الحد تكون هيئة الإذاعة البريطانية "مطمورة" إلى درجة تبدو معها في بعض الأوقات وكأنها تحاول أن تعوض عن أي اعتراف عابر بالفلسطينيين بصفتهم صانعي سلام. في 7 حزيران من العام 2005، روى راديو هيئة الإذاعة البريطانية أن المسؤولين البريطانيين عزموا على مقابلة المنظمة الإسلامية حماس على "مستويات منخفضة... رؤساء بلديات ليسوا مشاركين في العنف." معظم التقرير لم يكن مكرساً لمغزى الاجتماع (فحماس وافقت على أن تكون جزءاً من وقف إطلاق النار الفلسطيني)، ولكنه تكرس لمسؤول حكومي يشتكي شكوى متكررة من "التعامل مع الإرهابيين". ولم تجر أي مقابلة مع فلسطيني واحد.

لقد كان التقرير مثالاً للكيفية التي يبقى فيها التاريخ السري سرياً، لأن أي ذكر لم يأت إلى الحقيقة المتمثلة في أن الإسرائيليين أنفسهم قد ساعدوا بالفعل لتأسيس حماس وتمويلها ليكون ذلك جزءاً من "محاولة مباشرة لتقسيم الدعم، ولإضعاف هذا الدعم المقدم إلى منظمة تحرير فلسطينية قوية، وعلمانية وذلك باستخدام بديل ديني منافس"، حسب كلام مسؤول سابق في الشرق الأوسط من وكالة الاستخبارات الأمريكية. ودليله مع أدلة أخرى موجودة في وثائق تم الحصول عليها من معهد مكافحة الإرهاب الذي يقيم مركزه في إسرائيل*.[107]

وما يسميه بيتر بيومنت من الأوبزيرفر "الإزعاج النفسي الدؤوب" للصحافيين يتساوى مع التهديدات المادية، وهو أسوأ منها. وعاماً بعد عام، توثق جمعية الصحافة الأجنبية في القدس التخويف، والجرح والقتل الذي يتعرض له أعضاؤها من الجيش الإسرائيلي. وحسب معرفتي، لم يتعرض للأذى عمداً أي صحافي أجنبي، من طرف الفلسطينيين. وفي مدة ثمانية شهور، فإن العديدين من الصحافيين، ومن جملتهم مدير مكتب سي إن إن، قد جرحوا على يد الإسرائيليين، وبعضهم كانت جراحه خطيرة. وفي كل حالة، اشتكت جمعية الصحافة الأجنبية. وفي كل حالة، لم يكن هناك أي جواب.[108]

* مع كل الإنصاف الذي أبداه هذا الكاتب كيف يمكن قبول شهادة العدو الإسرائيلي ضد حماس؟ وكيف يمكن تصديق عميل لوكالة الاستخبارات المركزية ضد الفلسطينيين من حماس؟

وقد وبخ إدوارد سعيد قبل موته بقليل، الصحافيين الأجانب توبيخاً مريراً عن "دورهم المدمَّر" في "حذف السياق الذي يتم فيه العنف الفلسطيني، إنه رد فعل الشعب اليائس والمضطهد اضطهاداً مرعباً، والمعاناة المروعة التي ينبع منها."[109] وبعض الصحافيين قد يناقش في أن طبيعة عملهم هي طبيعة عابرة سريعة الزوال وأن المعنى التاريخي ليس من شأنهم. ولكن جان بول سارتر كان محقاً بالتأكيد حين كتب إن "الاشتراط التاريخي موجود في كل دقيقة من حياتنا". وليس هناك أي معنى في أن نوحي بأن الصحافة، بخلاف أي نشاط إنساني آخر، مجردة من العواقب ومعفاة من المسؤولية. ومثلما كانت حرب غزو العراق "حرباً بوسائل الإعلام"- وربما تكون حدثت بسبب إهمال الصحافيين، وصمتهم وتواطئهم بقدر ما حدثت بسبب السياسيين – وكذلك يمكن قول الشيء نفسه عن "النزاع" وحيد الجانب في فلسطين. ففي كلتا الحالتين، كانت العاقبة هي الدم المهراق لآلاف البشر الأبرياء.

الرقابة بالحذف، بوعي أو بغير وعي، تلعب دوراً رئيسياً. فالانتفاضة لم يقدم عنها تقارير أبداً تقريباً في "مجرى التيار العام للتفكير" بوصفها حرباً مشروعة للتحرير الوطني، وانتفاضة ضد الاضطهاد، مثل أي انتفاضة أخرى. والأسباب الحقيقية تحذف، مثل الأهمية الإستراتيجية المهيمنة لإسرائيل بالنسبة إلى الولايات المتحدة والقمع المتصل بحركة الوحدة العربية القادرة على تحدي السيطرة الغربية على نفط الشرق الأوسط، واستخدام إسرائيل أرض تجربة للأسلحة الأمريكية الجديدة وقناة للعملاء المناوئين للديمقراطية الذين تتردد أمريكا (أو كانت تتردد) في دعمهم علانية.

في العام 1981، قال ياكوف ميريدور، المنسق الرئيسي الاقتصادي للوزارة الإسرائيلية:

نحن سنقول للأمريكيين: "لا تتنافسوا معنا في جنوب إفريقية، ولا تتنافسوا معنا في الكاريبي أو في أي بلد آخر لا تستطيعون العمل فيه علناً. دعونا نفعلها." لا بل إنني أستخدم تعبير، "أنتم تبيعون الذخيرة والمعدات بالوكالة." وهذا سيتم عمله باتفاقات معينة مع الولايات المتحدة في الأماكن التي يكون لنا فيها أسواق معينة، سوف تترك لنا.[110]

لقد ساعدت إسرائيل جنوب إفريقية التمييز العنصري على أن تطور أسلحة نووية، وكانت هي "القناة" الموصلة للأسلحة الأمريكية على الرغم من حظر الأمم المتحدة لذلك. العسكريون في جنوب إفريقية وإسرائيل استخدموا أسلحة من نوع عوزي والجليل، وكذلك فقد جددت سياراتها المدرعة من قبل إسرائيل. وقامت المزارع الجماعية (لكيبوتسات) الإسرائيلية بصناعة الخوذات لشرطة التمييز العنصري. "وقال رئيس الوزراء بي. جيه. فورستر: "إسرائيل مصدر إلهام لنا."

وفي أمريكا الوسطى، سلحت إسرائيل ووكالة المخابرات الأمريكية ودربتا قوات الكونترا في نيكاراغوا، وزمر الموت في غواتيمالا، والعسكريين الفاشيست في السلفادور. وبين الطرفين، تركوا على الأقل مائة ألف قتيل. والقليل من هذا كتبت عنه التقارير. واحتاج الأمر إلى أشجع فاضح للفساد وهو مردخاي فعنونو، ليخبر العالم بالذي كان يعرفه المراسلون في القدس: وهو أن إسرائيل قد طورت ترسانة هي من أكثر الترسانات النووية في العالم هولاً.

"واتفاقات أوسلو" في التسعينيات من 1990 مثال لسوء إعطاء التقارير الإخبارية وحذف الأهداف الحقيقية لإسرائيل وللقوة الأمريكية في فلسطين. وكذلك فإن "عملية السلام" لم تكن أبداً عن السلام، بل كانت بشكل رئيسي عن إضفاء الاحترام الدولي على السيطرة الإسرائيلية الكبيرة على الأراضي المحتلة. ففي العام 1997، كتب إسرائيل شاحاك يقول: "يوجد فهم ضمني بين الإسرائيليين والفلسطينيين الذين حضروا المفاوضات السرية [في أوسلو] مفاده أنه لا يمكن لأي سلطة في الضفة الغربية وقطاع غزه أن تتحقق في صورة مادية ولو كانت اتفاقات أوسلو تأمر بذلك."[111] وفي العام 1995، أعاد واحد من "مهندسي السلام"، وهو شيمون بيريز طمأنة الجمهور الإسرائيلي بالقول: "إن الصفقة أبقت ما يلي في أيدي الإسرائيليين: 73 بالمائة من الأراضي [المحتلة]، و97 بالمائة من الأمن، و80 بالمائة من المياه."[112] والكثيرون من الفلسطينيين فهموا هذا وشكوا في تواطؤ ياسر عرفات ونخبته، الذين كانوا سيتسلمون مبالغ لا حساب عليها من دولارات النفط من دول الخليج، و100 مليون دولار على الأقل من الولايات المتحدة من أجل جهاز "أمني"

كان لديه كل البهارج الخاصة بحرس القصر المدلل الذي كان يتصرف أيضاً نيابة عن إسرائيل*.

أما العملية السلمية فقد نسقها رئيس أمريكي كان يرغب في أن يذكر لأمر آخر غير قضيته مع مونيكا لوينسكي، وكانت ارتباطاته الصهيونية ستساعده على تسديد ديونه، وقد كتب جون شتينباك يقول: "العملية السلمية":

وفرت الغطاء الكامل لتنفيذ السياسة التي صاغها أرييل شارون في العام 1977 وسماها "مصفوفة السيطرة". وقد استدعت هذه السياسة إنشاء مستوطنات إستراتيجية على قمم التلال في كل الضفة الغربية، مع ضرورة أن تربط "بطرق جانبية" مهيأة للاستخدام المقتصر حصراً على المواطنين [وعلى الجيش الإسرائيلي]... وكانت مصفوفة السيطرة هي الذَّنَب الذي هزهز كل عملية كلينتون، "العملية السلمية". لقد أعطت إسرائيل سبع سنوات من النشاط الاستيطاني المحموم (لقد ازداد عدد المستوطنين في أثناء "العملية السلمية" أكثر من الضعف) ومكن إسرائيل من بناء نسيج من القلاع للجيش الإسرائيلي وشق تسعة وعشرين طريقاً كبيراً، يحظر على الفلسطينيين السير عليها، مولتها إدارة كلينتون.[113]

وحين كان مشروع أوسلو يقترب من الاكتمال، وبعد أن تحولت الضفة الغربية إلى سلسلة من "البانتوستانات" (كلمة الغيتوات ربما تكون أدق) وصارت السيطرة العسكرية الإسرائيلية مضمونة، حينها فقط، قدم رئيس الوزراء إيهود باراك "عرضه الكريم" إلى ياسر عرفات في الاجتماع الأخير في كامب ديفيد في شهر تموز/يوليو من العام 2000 (وهو موضوع عالجته سابقاً في هذا الفصل). والأرض الوحيدة الجديدة التي عرضها تكونت من امتدادات من الصحراء تلي قطاع غزة وكانت إسرائيل قد استخدمتها مكباً للنفايات السامة. وكانت بقية الأرض متاهة

* رفض الشعب الفلسطيني بأغلبيته اتفاقات أوسلو، ورأى فيها تفريطاً شديداً بحقوقه. ولعل الانتخابات العامة التي جرت في كانون الثاني/يناير من العام 2006 خير دليل على ذلك. ومع ذلك فكل ما سبق من الاتهامات بحاجة إلى الأدلة، ولا يجوز إلقاء التهم جزافاً. ولم يكن يعرف عن الرئيس ياسر عرفات نقص المال لديه! (المترجم)

من المستوطنات والقواعد العسكرية، وهو ما كان يعني أن الفلسطينيين الموجودين في كانتونات لن يكون لهم وصول مباشر إلى حدودهم الدولية وأن مواطني الكنتونات سيستمرون خاضعين لأكثر من ثلاثة آلاف أمر عسكري إسرائيلي كانت تهيمن على أي تشريع فلسطيني.[114]

الزعم غير المعقول بأن باراك كان قد عرض "90 بالمائة" من الضفة الغربية روته التقارير الإخبارية من دون تحدٍ له عبر العالم الغربي، وكانت العناوين الرئيسية النموذجية: "إسرائيل توافق على الخروج من الضفة الغربية"، و"إسرائيل تنهي مطالبة اليهود بالضفة الغربية حسب الكتاب المقدس". وحين خرج باراك أخيراً، اتهم عرفات "برفض يكاد يكون على حافة التخريب". وترددت أصداء هذا من كلينتون وصارت هي الحقيقة الرسمية وحقيقة وسائل الإعلام، وكانت أكذوبة كذلك.

وقد كتب روبرت مالي، مفاوض كلينتون الرئيسي، بعد عامين، يقول: "إن الحقائق لا تصادق على هذا الزعم".

صحيح أن الفلسطينيين رفضوا نسخة حل الدولتين التي كانت قد عرضت عليهم. ولكن... إسرائيل رفضت حل الدولتين غير المسبوق الذي عرضه الفلسطينيون على الإسرائيليين [والذي أخذ بالحسبان] دولة إسرائيل التي تدمج بعض الأراضي التي استولت عليها إسرائيل في العام 1967، وشملت من ضمنها أغلبية كبيرة جداً من مستوطنيها، وأكبر قدس يهودية في تاريخ المدينة، وحفظ التوازن السكاني لإسرائيل بين اليهود والعرب، والأمن المضمون من حضور دولي تقوده الولايات المتحدة.[115]

إن حذف هذه الرواية الحقيقة من وسائل الإعلام الأمريكي والبريطاني، بالإضافة إلى شيطنة عرفات (للأسباب الخطأ)، مهدت الطريق لانتخاب شارون في العام 2001 ولتنفيذ الخطة التي سماها "المرحلة التالية من إسرائيل الكبرى". وفي العام 2004، أعلن أن إسرائيل سوف "تفك الارتباط" بغزة وتفكك المستوطنات الموجودة هناك. مرحى عزف موسيقي، مجرم الحرب صار صانع سلام ! وقال عنوان

رئيسي فوق مقالة كتبها الصهيوني الليبرالي في الغارديان جوناثان فريدلاند، الذي كان مسح على شارون بالزيت لتقديسه، "أنا أساند شارون حامل الراية المستبعد إلى أقصى حد بالنسبة إلى أولئك الذين يتوقون إلى التقدم في الشرق الأوسط."[116]

وكان العكس هو الصحيح. فقد كشف أقرب مستشار لشارون، وهو دوف وينغلاس، الذي اخترع "خطة فك الارتباط"، أن هدفها كان صرف الانتباه عن النقد الدولي لإنشاء إسرائيل الجدار عبر الضفة الغربية، وهو الجدار الذي حكمت محكمة العدل الدولية بأنه غير قانوني. وقال: "إن الخطة مصممة لتجميد عملية السلام، [و] منع تأسيس دولة فلسطينية [مع] إجراء مناقشة حول اللاجئين، والحدود والقدس." وسيعاد تحديد مواقع جديدة للمستوطنات لا أن يعاد تفكيكها، وذلك لكي تتم الموافقة من نظام حكم بوش على إلحاق الضفة الغربية وعلى جدار التمييز العنصري. وقال: "عملياً [ فإن هذا يعني أن] هذه الرزمة كلها التي تدعى الدولة الفلسطينية، مع كل ما تستدعيه، قد أزيلت من جدول أعمالنا إلى أجل غير محدد. وكل ذلك مع مباركة رئاسية [أمريكية] ومع تصديق من كلا مجلسي الشيوخ."[117]

وذلك هو ما حدث.

فطوال ثلاثة أسابيع في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر من العام 2005، استطاعت الحكومة الإسرائيلية والمروجون لها بنجاح أن يصرفوا انتباه الكثير من العالم بعرض مسرحي دعى "فك الارتباط". وبعد أن أعطيت المناسبة تغطية تلفازية حتى درجة الإشباع، ليلة بعد ليلة، أزيلت من غزة "مستوطنات" المتطرفين في حماستهم للمسيح المنتظر، وأغلبهم من الأجانب، والكثيرون منهم ينتحبون ويعرضون أنفسهم أمام آلات التصوير، وقد أوصى الآباء أطفالهم بلف أنفسهم بشالات الصلاة وبأن ينشجوا بالبكاء وأن يصرخوا تحدياً لإزالة المستوطنات.

وقد كتب جوناثان ستيل يقول: "إن أولئك الذين يزعمون زعماً مخلصاً أو مخادعاً، أن وسائل إعلام العالم منحازة لصالح الفلسطينيين قد انهارت حجتهم

هذا الأسبوع." "فالمستوطنون" وهم يقدمون "تضحيتهم المؤلمة" من أجل السلام، كما سماها شارون، قد تم إخلاؤهم على أيدي جنود إسرائيليين تلقوا "تدريباً في الحساسية" للتأكد من أن أعمال الجنود لا تسبب إلا الحد الأدنى من "الألم". وقد أعطي لهم الإنذار المناسب، وتم توفير وسيلة النقل، ودفع لهم التعويض الكريم مقدماً وكانت تنتظرهم بيوت جديدة مدعومة من الحكومة في إسرائيل نفسها.[118]

وقد أبعد حوالي 8.500 "مستوطن". وعلى النقيض من ذلك، ففي الشهور العشرة الأولى من العام 2004، شرد 13.350 فلسطينياً وصاروا بلا بيوت بفضل جرافات عملاقة مدرعة قدمتها الولايات المتحدة. ولم يعط للفلسطينيين أي إنذار، ولم يكن لدى العائلات في الغالب وقت لكي تصعد الدرج وتجمع ممتلكاتها الثمينة. وإن لم يتحركوا فوراً من بيوتهم، كانت مكبرات الصوت توقظهم في منتصف الليل، وكانوا يجازفون بالتعرض للاعتقال أو بإطلاق النار عليهم. ولم يكن هناك تغطية تلفازية على مدار الساعة، وفي الحقيقة، قلما وجدت أي تغطية مطلقاً، ولم يدفع لهم أي تعويض.[119]

وتلقى شارون التهنئة من جورج دبليو. بوش على "أعماله التاريخية والشجاعة"، وتلقى التهنئة على "جسارته" من رئيس اللجنة القومية الديمقراطية، دين هاوارد. وهو الليبرالي،.[120] وقال بلير شيئاً شبيهاً لذلك في المبالغة في التعبير، ومثلهم فعلت معظم الافتتاحيات في الصحافتين الأمريكية والبريطانية. ومع ذلك، فقد حذر جوناثان فريدلاند في الغارديان، من أنه إذا كان هناك المزيد من أعمال إخلاء "المستوطنين" من الضفة الغربية، "فإن شارون لن يبقى بطلاً بعد ذلك."[121]

وما كان يحتاج إلى أن يقلق. فلم يكن هنا، عملياً، أي "فك ارتباط". ومن ذلك الوقت حتى أواسط شهر تشرين الثاني/أكتوبر من العام 2005، تم نقل أكثر من 5.500 "مستوطن" على الأقل إلى الضفة الغربية زيادة عمن نقلوا من غزة. فقد قامت إسرائيل سراً، بتوسيع وجودها في الأراضي المحتلة، واستولت على مساحة من الأرض أكثر من تلك التي تخلت عنها في غزة. وفي الوقت نفسه، يجري تطويق القدس الشرقية الفلسطينية ببناء بيوت يهودية بشكل مسعور جنوني. مع وجود

حدود بلدية جديدة تمتد 45 ميلاً في عمق الضفة الغربية، وهي بذلك تعزل خمسة وخمسين ألف عائلة فلسطينية وتقطعهم عن الآخرين. وعبر هذه الحدود سوف يمر جدار التمييز العنصري الذي تقوم إسرائيل ببنائه تحدياً لمحكمة العدل الدولية، والذي يقسم العائلات، والناس ويعزلهم عن أماكن عملهم، ويعزل الأطفال عن مدارسهم.[122]

وقد كتب جيف هالبر، وهو رئيس اللجنة الإسرائيلية ضد تدمير البيوت، وقال: بالنسبة إلى شارون، "إنها صفقة تمتّ. [فهو] قد أنجز أخيراً المهمة التي كان قد كلفه بها منذ ثمانية وثلاثين عاماً مناحيم بيغن وهي: اضمن السيطرة الإسرائيلية الدائمة على كل أرض إسرائيل في الوقت الذي تمنع فيه ظهور دولة فلسطينية قابلة للحياة."[123]

لقد فرح أهل غزة برحيل "المستوطنين"، ولكنهم مازالوا معزولين عن العالم الخارجي. ووفقاً لما قال جيمس وولفينسون، الرئيس السابق للبنك الدولي والمبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى المنطقة، فإن إسرائيل "تتصرف تقريباً وكأن فك الارتباط لم يحدث."[124] وقد روت وكالة الأنباء الإسرائيلية، أن الجيش الإسرائيلي، سوف "يبني سياجاً أمنياً آخر حول قطاع غزة. وفي النهاية، سوف يضم النظام ثلاثة سياجات، وأجهزة إحساس إليكترونية وبصرية وفق أحدث ما أنتجه العلم إضافة إلى رشاشات تحت السيطرة من بعد. ويجب أن يكون النظام مكتملاً في أقل من عام مقابل تكلفة إجمالية تصل إلى 220 مليون دولار [وتدفع التكلفة من دافع الضرائب الأمريكي]." وقد وصف الكاتب إسرائيل شامير هذا النظام بأنه "الدفن في اللحد"[125]

وقال جغرافي إسرائيلي، وهو آرنون سوفّر، وهو الذي يشير على الحكومة بشأن "التهديد السكاني" الذي يفرضه الفلسطينيون، لصحيفة جيروساليم بوست "سيكون الضغط على الحدود مروعاً. وستكون حرباً مرعبة. ولذلك، فإذا كنا نريد أن نبقى أحياءً، فسيتوجب علينا أن نقتل، ونقتل ونقتل، كل اليوم، وفي كل يوم."[126]

ومنذ رحيل "المستوطنين"، بدأ رعب جديد. فالقوات الجوية الإسرائيلية تهاجم أهل غزة بإطلاق "أصوات دوي" يصم ويسبب خوفاً واسع الانتشار، ويحرض على الإجهاضات وإصابة الأطفال بالصدمة النفسية والجسمية. وقيام الطائرات بالطيران على ارتفاع منخفض بعد حلول الظلام، يخلق أصوات دوي يرسل موجات صادمة عبر الأراضي ويرسل صوتاً مثل الزلازل أو أصوات انفجار القنابل الضخمة. وقالت وكالة الأمم المتحدة للاجئين إن أكثرية المرضى في مستوصفاتها كانوا تحت سن السادسة عشرة ويعانون من نوبات القلق، والبوال الليلي، وتقلص العضلات، وفقدان السمع وصعوبات التنفس. وفي مستشفى الشفاء في غزة، زاد عدد الإجهاضات بنسبة 40 بالمائة.[127]

إحدى مرات الصوت الداوي سمعت من غير قصد في إسرائيل. وقد روت معاريف، وهي صحيفة يومية في تل أبيب بأن صوت الدوي "كان مثل قصف ثقيل بالقنابل، وكانت الضجة التي هزت الأجواء الإسرائيلية مخيفة. فآلاف من المواطنين قفزوا بحالة رعب من فراشهم..." ومن أجل هذا الخطأ، أجبر العسكريون على الاعتذار للجمهور الإسرائيلي – في حين أنهم مستمرون في إرهابهم لغزة.[128]

لم يقدم أي اعتذار عن قتل إيمان الهمص، وهي طالبة مدرسة فلسطينية بلغت الثالثة عشرة من عمرها وكانت تعيش في مخيم اللاجئين في رفح في غزة. وفي 15 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2005، برأت محكمة عسكرية إسرائيلية ضابطاً في الجيش كان قد أطلق النار على إيمان سبع عشرة مرة بعد أن كان قد تلقى تحذيراً بأنها كانت مجرد طفلة وكانت "خائفة حتى الموت". وبعد أن أطلق ذلك الضابط الذي لم تتحدد هويته النار عليها، وهي تمشي مبتعدة، "أكد القتل" لجنوده، ثم أفرغ مخزناً كاملاً في رأس الفتاة. وعلى شريط مسجل، "يوضح" الضابط لماذا قتل إيمان. وقال: "إن أي شيء متحرك، ويتحرك في المنطقة، ولو كان عمره ثلاث سنوات، يجب أن يقتل." ولم تكن قواته في أي نقطة قد وقعت تحت أي هجوم. وقد برأته المحكمة من تهم صغيرة مثل "سلوك لا يليق بضابط."[129]

وفي الوقت الذي كنت أكتب فيه هذا النص، وقعت حادثتان أعادتا وضع فلسطين ثانية على الصفحات الأولى من الصحف. الأولى، هي أن شارون عانى من جلطة، وهو ما ولد موجة من الدعاية تنافس الدعاية التي رافقت خروج المستوطنين من غزة. وبين عشية وضحاها، جرى تجميل شارون. فهذا الرجل الذي قالت عنه لجنة كاهان إنه حمل "مسؤولية شخصية" عن مجازر صبرا وشاتيلا، وهذا الرجل الذي سبق له أن حقق سوء السمعة في مجزرة قبية، وهذا الرجل الذي دمر لبنان وأشعل عن عمد الانتفاضة الثانية، كان هو الآن التجسيد "للسلام" وكان هو "الآمال المعقلة بخيط".[130] وبالنسبة إلى جوناثان فريدلاند من الغارديان، وهو الذي "تهاوى" قلبه من الأنباء التي تقول إن شارون كان إنساناً فانياً، فإن إسرائيل "فقدت جدها". وذلك لأن تلك الواجهة القاتلة كان خلفها بالفعل رجل مسن عزيز يخطط بانهماك من أجل "تقدم أكبر، – الإنهاء الجزئي للاحتلال وتفكيك المستوطنات غير القانونية – تقدم أكبر من أي وقت مضى طوال أربعة عقود."[131]

ورداً على هذه السخافات المحمومة كتبت كرمة النابلسي، وهي فلسطينية، عن شارون، تقول:

مصيره المحتوم بالنسبة إلينا كان رؤية مثل رؤية هوبز لمجتمع فوضوي: مجتمع مبتور، وعنيف، وبلا قوة، ومدمَّر، ومذعور، ومحكوم من مليشيات يائسة، وعصابات، ومتمذهبين دينيين، ومتطرفين، ومقسوم إلى قبيلية عرقية ودينية، ومتعاونين مع العدو مختارين. انظروا إلى عراق اليوم: ذلك هو ما قد أعده بانتظارنا، وهو قد أنجزه تقريباً.[132]

وفي الوقت الذي يرقد فيه شارون في غيبوبة، فإن أكثرية الفلسطينيين أصابت مساندیه بالفزع بالتصويت لحماس لتدير "سلطتهم" في الضفة الغربية وغزة. وقد هددت واشنطون والاتحاد الأوروبي فوراً بالعقوبة الجماعية لشعب مارس الحقوق الديمقراطية نفسها التي سبق أن زعم بوش أنه كان يستحضرها إلى الشرق الأوسط. والمفارقة التي تبعث على السخرية سريعة الزوال. سيتوجب على الغرب وعلى إسرائيل أن تتعامل مع حماس، التي سبق منذ مدة طويلة أن عرضت هدنة متفاوضاً عليها طويلة الأمد، إضافة

إلى قضيتها الخاصة مع الإسرائيليين.[133] وفي 27 شباط/فبراير من العام 2006، قال قائد حماس، إسماعيل هنية، "إذا أعلنت إسرائيل أنها سوف تعطي الشعب الفلسطيني دولة وتعيد إليهم كل حقوقهم، آنئذ نكون نحن جاهزين للاعتراف بهم."[134] هذا البيان الذي يشق أرضاً جديدة لقي الحد الأدنى من التغطية تحت العناوين الرئيسية لآخر التهديدات الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية.

ومن غزة، أرسلت لي الدكتورة منى الفرا رسالة إليكترونية (إيميلاً) تقول فيها: "نحن مستمرون في الكفاح ضد هذا الظلم الكبير، وبفضل مساندة كل الذين يكافحون ضد الظلم، قد نكون قادرين على النجاح. أعتقد ذلك. وآمل ذلك. وأرجو ألا تنسونا."

في العام 1983، عرضت الفنانة الفلسطينية منى حتوم في لندن تشكيلاً غير عادي وسمته "الطاولة المفاوضة". وحين رأيتها بعد عشرين سنة، ذكرتني أن الظلم الذي وقع على بلادها كان يشبه شبحاً: لا يتحرك ويراقب، بغض النظر عن التلاعبات والخداع الذي يمارسه المضطهدون ومساندوهم. "الطاولة المفاوضة" تربط الخداع مع الحقيقة، وتضيء الاثنين. وهذا هو الوصف الذي وصفت الفنانة نفسها ذلك به:

الغرفة مظلمة، ومضاءة بمصباح ضوئي فقط يتدلى فوق الطاولة التي تتمدد فوقها الفنانة بلا حراك. وتحيط بالطاولة كراسي فارغة. جسدها ملطخ بالدم، ومغطى بأحشاء، ملفوفة بالبلاستيك، ورأسها مغطى بإحكام بالشاش الجراحي. وعلى الشريط المخصص لتسجيل الصوت يمكن سماع تقارير أخبار عن حرب أهلية وخطابات يلقيها زعماء غربيون يتحدثون فيها عن السلام.

أصوات المذيعين والسياسيين الغربيين المنبعثة طنّانة، ومنافقة، ومتواصلة، يندمج الواحد منها بالآخر، اقتباساً بعد اقتباس، أنتجت واقعاً زائد الحدة لا ينسى. لقد نجح الفن حيث أخفقت الصحافة، ولا أعتقد أن أي شخص ينظر إلى هذا، وقد سمّرته الدهشة مثلي، سوف يخفق في إدراك الكيفية التي تمت فيها إدامة الظلم في فلسطين.

لقد فهمت فوراً الأثر غير الإنساني للجدار الذي يقوم شارون ببنائه مثل الثعبان يزحف عبر الأراضي المحتلة. واستذكرت القرى الفلسطينية التي سبق أن رأيتها في الجانب الإسرائيلي من الجدار، فكل قرية منها محاطة الآن بجدار منفصل، مثل الحلقة، يحولها إلى جزيرة ومتخلياً عن القرويين ورامياً بهم في نوع من مخيمات الاعتقال. وهناك نفق يستطيع القرويون من خلاله أن يصلوا إلى بقية الضفة الغربية. وفي النفق يوجد حاجز حديدي مشبك تستطيع الحكومة الإسرائيلية أن تنزله في أي لحظة، فتوقع القرويين في مصيدة. ويقول مصممو الجدار إن هذا الشبك "اقتصادي في التكاليف" أكثر من نوع نقاط التفتيش المزودة بالجنود التي اصطادت فاطمة وتسببت في موت وليدها.

وأود أن أضيف إلى العمل الشبحي الذي عملته منى حتوم صوت المؤلف غير المعروف لهذا البيان الصحفي الذي أصدرته إدارة التجارة في لندن:

إن إسرائيل قصة نجاح جديرة بالملاحظة بالنسبة إلى دافعي الضرائب البريطانيين. فعلى الرغم من أن هذه البلاد بحجم ويلز فقط، فإن صادرات المملكة المتحدة لهذا السوق الحي قد نمت نمواً مطرداً. والمصدرون البريطانيون يشعرون، وه في إسرائيل، أنهم في بلدهم والإسرائيليون ميالون ميلاً تفضيلياً جداً نحو البريطانيين العاملين في التجارة والأعمال. وزيادة على ما تقدم، فإن رئيس وزرائنا ورئيس وزرائهم على اتصال منتظم وتقوم بينهما علاقة عمل وعلاقة شخصية جيدة. وهما يقدمان إيجازاً أحدهما للآخر ويتشاوران في التطورات السياسية الحديثة بانتظام.

إن قسماً لا يستهان به من حزب العمال البريطاني كان يساند في السابق العدل من أجل الفلسطينيين. وقد عززت مجازر صبرا وشاتيلا في لبنان في العام 1982 هذه المساندة، وكان أرييل شارون قد تلقى توبيخاً وهوجم على دوره في الجريمة. وهذا ما أقلق الإسرائيليين، وفي التسعينيات من 1990 عين مسؤول عالي الرتبة، وهو جيديون مير، في السفارة في لندن مع تعليمات تحثه على القيام بعمل اتصالات مع الزعيم الجديد لحزب العمال طوني بلير. ودعا مير بلير إلى الغذاء مع مايكل ليفي، وهو رجل أعمال من لندن له علاقات حميمة مع المؤسسة الإسرائيلية. ونجحوا نجاحاً

شديداً للغاية. وقال ليفي عن شريكه في لعب التنس "نحن كلانا نلعب لنربح، ليس هناك سجناء". ولم يمض وقت طويل قبل أن يطير بلير وزوجته، تشيري، في الدرجة الأولى إلى إسرائيل، وجميع المصاريف مدفوعة من الحكومة الإسرائيلية.

وقد أعاد ليفي الأعضاء الساخطين من المجتمع اليهودي إلى صفوف الحزب وجمع نوع المال المطلوب الذي يستطيع أن يحرر القيادة من الاعتماد على اتحادات العمال، ونقل بلير حزب العمال الجديد بعيداً عن الفلسطينيين وانحاز إلى إسرائيل. وكان الجالسون في المقاعد الأمامية في البرلمان مثل روبن كوك، وكان آنئذ وزير خارجية في وزارة الظل، مجبرين على أن يأخذوا الموافقة على بياناتهم عن الشرق الأوسط من جوناثان باول، وهو مسؤول سابق في وزارة الخارجية وصار رئيس موظفي بلير. وكان أول أعمال بلير، وهو رئيس للوزراء، هو أن يكافئ ليفي بلقب ويجعله "مبعوثه الخاص" إلى الشرق الأوسط. وهكذا فوضت الحكومة البريطانية مسانداً متحمساً لإسرائيل ليكون ممثلها: السخف اللامعقول الذي قد ترغب منى حتوم في تقديره.

في 11 أيلول/سبتمبر من العام 2001، كان معرض للأسلحة معقوداً في دوكلاند في لندن، مدعوماً من حكومة بلير. وقد ألغي الكثير من النشاطات العامة في ذلك اليوم، من منطلق الاحترام للضحايا الذين سقطوا في البرجين، ولكن لم يلغ هذا المعرض الذي يعرض آخر الأسلحة. وكان للإسرائيليين جناح كامل هناك، فشركة إسرائيلية واحدة، وهي رافائيل، عرضت صاروخ جل – سبايك، الذي أثبت سجلاً من الاستخدام ضد المدنيين في جنوب لبنان وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة والذي كانت وزارة الدفاع البريطانية تريد أن تشتريه.

وفي العام التالي، ضاعفت بريطانيا صادرات الأسلحة إلى إسرائيل بعد أن كان نظام حكم شارون قد كسر الضمان المكتوب الذي سبق له أن أعطاه بأنه لن يستخدم التجهيزات العسكرية البريطانية في الأراضي المحتلة. وسمح للأنظمة الأرضية والفضائية الجوية البريطانية بتصدير مكونات عسكرية حيوية لطائرات اف – 16 والطائرات العمودية الأباتشي الأمريكية الصنع، التي كثيراً ما يهاجم

بها الطيارون الإسرائيليون المناطق المدنية.[136] وصار تسليح إسرائيل سرياً وبشكل مخادع إذا لزم الأمر، هو الآن السياسة البريطانية.

وفي شهر نيسان/ابريل من العام 2004، ردت البارونة سيمونز، وهي وزيرة في وزارة الخارجية، على مقالة لي كتبتها في نيوستيتسمان وقالت المقالة إن الحكومة قد رخصت معدات التعذيب للتصدير إلى إسرائيل. وقالت البارونة: "أستطيع أن أؤكد أن هذه لم تكن هي القضية."

ولكن آخر سجل عام عن صادرات الأسلحة وافقت عليه وزارة الخارجية، وهو التقرير السنوي للعام 2002 لضوابط التصدير الإستراتيجي في المملكة المتحدة، يؤكد أن نوعاً من صادرات الأسلحة المعروف باسم بي إل 5001 قد تم الترخيص ببيعه إلى إسرائيل. ويشمل هذا النوع "قيوداً للرجلين، سلاسل عصابة لنقل السجناء، أحزمة صدمة كهربائية، أغلالاً، أصفاد يدين" إضافة إلى معدات "مصممة خصيصاً" لسيارات السيطرة على الشغب. وكما أوردت منظمة العفو الدولية في تقاريرها مراراً وتكراراً، فإن التعذيب شائع في السجون السياسية في إسرائيل.[137]

تسليح بريطانيا لإسرائيل تسليح صغير مقارنة بتسليح أمريكا لها. ويشمل التسليح مقاتلات اف – 16، والطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي وبلاك هوك، وتشكيلة من الصواريخ والمعدات الأخرى: وفي الحقيقة، كل شيء جديد تقريباً على طاولة رسم التقانة العسكرية العالية في أمريكا يصل على ما يبدو إلى إسرائيل. وقد لاحظت ها آرتس في ربيع العام 2005 أن اقتراح وزارة الدفاع الأمريكية لتزويد نظام حكم شارون بعدد جوهري من القنابل مفجرة المنعات "يستدعي القلق فوراً بشأن ضربة أحادية الجانب ضد إيران."[138] وشكراً لواشنطون، فالقوات العسكرية الإسرائيلية الآن هي رابع أضخم قوة في العالم، ومعها قوة جوية أكثر من ضعف حجم قوات السلاح الجوي الملكي والقوات الجوية الفرنسية مجتمعة.

وأسلحة التدمير الشامل في إسرائيل هي محرم آخر. فالزعماء الأمريكيون والغربيون الآخرون لا يذكرون هذه الأسلحة أبداً. وكانت تلك الأسلحة قد طورت

تحت الرعاية الأمريكية، والأسلحة الكيماوية، والحيوية ومن جملتها غاز الأعصاب، تصنع في معهد بحوث للأسرار العليا في نيس – زيونا، قرب تل أبيب.[139] ومع امتلاك إسرائيل بين 200 و500 سلاح حراري نووي ونظام إطلاق متقدم، فإن إسرائيل حلت محل بريطانيا بصفتها خامس أكبر قوة نووية في العالم وقد تنافس كلاً من فرنسا والصين معاً في حجم ترسانتها النووية وتقدمها.[140] وتبجح شارون قائلاً: "العرب يملكون النفط، ولكننا نملك أعواد الثقاب."

إن المسؤولية الأولى عن كل هذا تقع على واشنطون. والصراع في فلسطين هو حرب أمريكية، تشن من أشد قواعد أمريكا الأجنبية تسليحاً وأثقله، وهي إسرائيل. في الغرب، نحن مكيّفون على ألا نفكر في "النزاع" الإسرائيلي الفلسطيني على هذه الأسس، على الرغم من أن الدلائل كاسحة. وليس معنى هذا أن نقلل من حقيقة المبادرات القاسية التي لا رحمة فيها والتي تبادر بها دولة إسرائيل، ولكن من دون اف – 16 ومن دون الأباتشي وبلايين دولارات دافعي الضرائب الأمريكيين، كانت إسرائيل قد صنعت السلام مع الفلسطينيين منذ وقت طويل. وبدلاً من الدور العادي، فإن الدور المعين لها كان واضحاً: تدمير العلمانية العربية والقومية العربية.

إن "المشاريع" الأمريكية والإسرائيلية صارت فعلياً غير قابلة للتمايز. فحين هاجمت إسرائيل مخيم اللاجئين في جنين في العام 2002، كان "المراقبون" الأمريكيون هناك. وبعد عامين، حين هاجمت الولايات المتحدة الفلوجة في العراق، فإن مشاة بحريتها استخدموا الأساليب الإسرائيلية التي تعلموها، مثل جرف البيوت بالجرافات وإطلاق الصورايخ الموجهة بالسلك من طائرات عمودية و"طلقات دبابات مسلحة خصيصاً لتحفر ثقوباً في المباني من دون أن تنهار البيوت انهياراً كاملاً، مثلما حدث في جنين"، وذلك وفق ما كتبه جون كولي.[142] والصور التلفازية للأسرى العراقيين وهم في غماء يغطي رؤوسهم وفي القيود، قد تكون قد أخذت في فلسطين بعد اجتياح إسرائيلي ساحق. وطرق التحقيق مشتركة: فالإساءات الأمريكية في سجن أبوغريب في العراق تشبه شبهاً قريباً الإساءات التي ترويها في تقاريرها منظمة العفو الدولية عن إسرائيل.

وعدم التماثل في "العون" الأمريكي "للنزاع الإسرائيلي – الفلسطيني" أمر كشاف ينم عما خلفه. فإسرائيل بسكانها الذين يبلغون ستة ملايين نسمة، ويمثلون 0.1 بالمائة من الإنسانية تتلقى. 10 بالمائة تقريباً من ميزانية "العون" الأمريكي – من أجل الأسلحة وتجهيزات الحرب فقط. وهذا الرقم يحتمل أن يرتفع إلى 2.4 بليون دولار مع حلول العام 2008. ووفق ما جاء في مصلحة البحث في مجلس الشيوخ فإن ميزانية "العون" نفسها تتضمن 28 مليون دولار "لمساعدة أطفال [الفلسطينيين] للتعامل مع حالة النزاع الحالية"، ولتوفير "العون الأولي الأساسي." وهكذا فأمريكا تسلح الإسرائيليين وتجهزهم، وهم الذين يقصفون الفلسطينيين بالقنابل ويطلقون عليهم النار، وهؤلاء يُعطون آنئذ "العون الأولي" الأمريكي.[143]

ومن الناحية الإستراتيجية، فإن التخطيط الأمريكي والتخطيط الإسرائيلي متماثلان تقريباً. ولقد كانت الاستخبارات الإسرائيلية المشوهة التي أرسلت من خلال وحدة خاصة في وزارة الدفاع الأمريكية ("مكتب الخطط الخاصة") هي التي شكلت الأساس لأكاذيب إدارة بوش حول أسلحة التدمير الشامل العراقية غير الموجودة. وبعد الغزو، حث شارون الولايات المتحدة على الالتفات إلى إيران. وفي العام 2006، فإن الهجوم على إيران إمكانية حقيقية، مع قيام إسرائيل باستلام حوالي خمسة آلاف من "الأسلحة الذكية التي تطلق جواً" من أمريكا، ومن جملتها خمسمائة من قنابل "تفجير المنعات".[144]

وبالنسبة إلى أولئك الذين ألهمتهم الحركة الدولية العظيمة التي ساعدت على إسقاط التمييز العنصري في جنوب إفريقية، فإن المتوازيات بين التمييز العنصري وبين إسرائيل، مهما تكن غير دقيقة، تقدم طريقاً إلى الأمام. وقد قال نلسون مانديللا إن "التمييز العنصري جريمة ضد الإنسانية." إن "إسرائيل قد جردت ملايين الفلسطينيين من حريتهم وممتلكاتهم [و] أدامت نظاماً شنيعاً للتمييز الفاضح." والزعم أن إسرائيل ديمقراطية ليس بعيد الشبه عن الرواية التي كان يتقاسمها بيض جنوب إفريقية. فالانتخابات، والبرلمان، ومحكمة العدل، لا بل ومع ذلك حرية معينة للكلام كلها كانت، وهي الآن، كما يقال بهارج ضرورية. فالدولة

الإسرائيلية تستند إلى التفوق اليهودي، مثل دولة التمييز العنصري التي احتفظت بتفوق البيض العرقي خلف واجهة ديمقراطية.

يستطيع اليهود في أي بلد أن يأتوا ليعيشوا في إسرائيل حياة مواطنين كاملي المواطنة في حين يحرم السكان الأصليون الحق في العيش في وطنهم. وغير اليهود محددون في كمية الأرض التي يستطيعون امتلاكها وأين يستطيعون بناء بيوتهم. وثمانون بالمائة من الأرض المملوكة من العرب الإسرائيليين قد تمت مصادرتها. وبالإضافة إلى الطرق المخصصة لليهود فقط، هناك الآن منشآت للهو لليهود فقط، ومن جملتها الشواطئ. "وقد تم احتجاز أكثر من 1.100، ومن جملتهم أطفال في رحلات مدرسية،" حسب ما جاء في تقارير الغارديان، منذ بدء "العملية الهادفة لإنشاء شواطئ خاصة باليهود فقط."[145]

ومنذ العام 1948، رفضت المحكمة العليا الإسرائيلية النظر في كل القضايا التي تعالج الحقوق المتساوية للفلسطينيين الذين هم مواطنون في إسرائيل، والذين يشكلون 19 بالمائة من السكان (بوصفهم متميزين عن الفلسطينيين الذين توجد بيوتهم في الأراضي المحتلة، أو الذين طردوا إلى الأراضي المحتلة). إن اثنين وأربعين بالمائة من هؤلاء المواطنين العرب الإسرائيليين يعيشون تحت خط الفقر ويتم التمييز ضدهم في التوظيف والتعليم. وتعتبر جريمة إذا جرى التساؤل علناً عن التفوق اليهودي في الدولة، وأولئك الذين يقدمون على هذا التساؤل يمنعون من التقدم إلى أي منصب عام أو إشغال مثل ذلك المنصب.

في 15 أيار/مايو من العام 2005، صوت البرلمان الإسرائيلي على مد التعديلات العرقية لقانون المواطنة والدخول، ومنع بذلك إعادة توحيد شمل ما يقرب من واحد وعشرين ألف أسرة من الفلسطينيين ممن لهم مواطنة إسرائيلية مع الفلسطينيين الموجودين في الأراضي المحتلة. ووفقاً لمركز العدالة القانونية في إسرائيل، فإن التعديلات "تنشئ ثلاثة مسارات عرقية منفصلة للمواطنة في إسرائيل: مسار لليهود، ومسار للعرب، ومسار للأجانب."[146] ونتيجة لذلك، تم فصل العائلات فصلاً دائماً: الزوجات عن أزواجهن، والأطفال عن آبائهم، وبعضهم لا يبعد عن الآخر أكثر من

بضعة أميال قليلة، وفرض عليهم أن يبقوا منفصلين بسلك شائك كشفرات الموسى، وبالمدافع المرابطة في نقاط تفتيش عشوائية، والآن بجدار على طراز جدار "برلين". وفي أثناء عيد الميلاد في العام 2005، ولأول مرة، أحيطت بيت لحم بجدار عازل، وحبس أهلها وكأنهم في حظيرة، وساد شوارعها الصمت تقريباً.

إن هذا العزل المنهجي للعائلات كان ملمحاً للتمييز العنصري في جنوب إفريقية، وهو التمييز الذي ساعدت في قهره عقوبات الأمم المتحدة، والمقاطعة العالمية اقتصادياً، وثقافياً وعلمياً. فأي دولة غير إسرائيل كان يمكن لها أن تتمتع بالغياب الكامل لمثل هذا العار والشّنار الدولي في الوقت الذي تضطهد فيه شعباً آخر طوال أربعة عقود؟ ثم لماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة إلى مقاطعة جامعات إسرائيل، ترتفع الصيحة عن "الحرية الأكاديمية" من أولئك الذين لم ينبسوا ببنت شفة عن حرية الفلسطينيين؟ ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة المؤسسات الثقافية الإسرائيلية، ترتفع الصيحة عن "الحرية الفنية" من أولئك الذين لم يتفوهوا بشيء عن التلطيخ المنهجي بالغائط لرسوم الأطفال في المركز الثقافي في رام الله، ورمي المخطوطات الأصلية في القمامة، وسرقة الأدوات الموسيقية، ومنع الأطفال، يوماً بعد يوم، من الذهاب إلى المدرسة؟

ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة الفرق الإسرائيلية الرياضية، ترتفع الصيحة عن "أبقوا على السياسة بعيدة عن الرياضة" من أولئك المدركين بأن الفلسطينيين قد حرموا في الغالب كرة قدم حقيقية ليرفسوها في غبار مخيماتهم السجون؟ ولماذا، في كل حين تقوم فيه دعوة لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية، ترتفع الصيحة عن "الحرية في التجارة" من أولئك الذين بقوا صامتين في الوقت الذي يعاني فيه نفس الأطفال، الذين عزلت مجتمعاتهم عمداً عن أي تجارة، من سوء التغذية الحادة؟

وقد قال رامي الهانان، الوالد الإسرائيلي الذي فقد ابنته على يد مفجر انتحاري: "في الوقت الذي يسود فيه هذا الصمت، وهذه الإشاحة بعيداً، وهذه الإساءة الدنِسة لنقادنا بوصفهم معادين لليهود، فنحن لا نختلف عن أولئك الذين

وقفوا جانباً في أثناء أيام المحرقة. نحن لسنا متواطئين فقط في جريمة، بل إننا نتأكد من أننا نحن أنفسنا لن نعرف السلام أبداً، وأطفالنا الذين يبقون على قيد الحياة لن يعرفوا السلام أبداً. وأنا أسألك: هل لهذا أي معنى؟"

* * *

obeikandl.com